هدية الإيمان

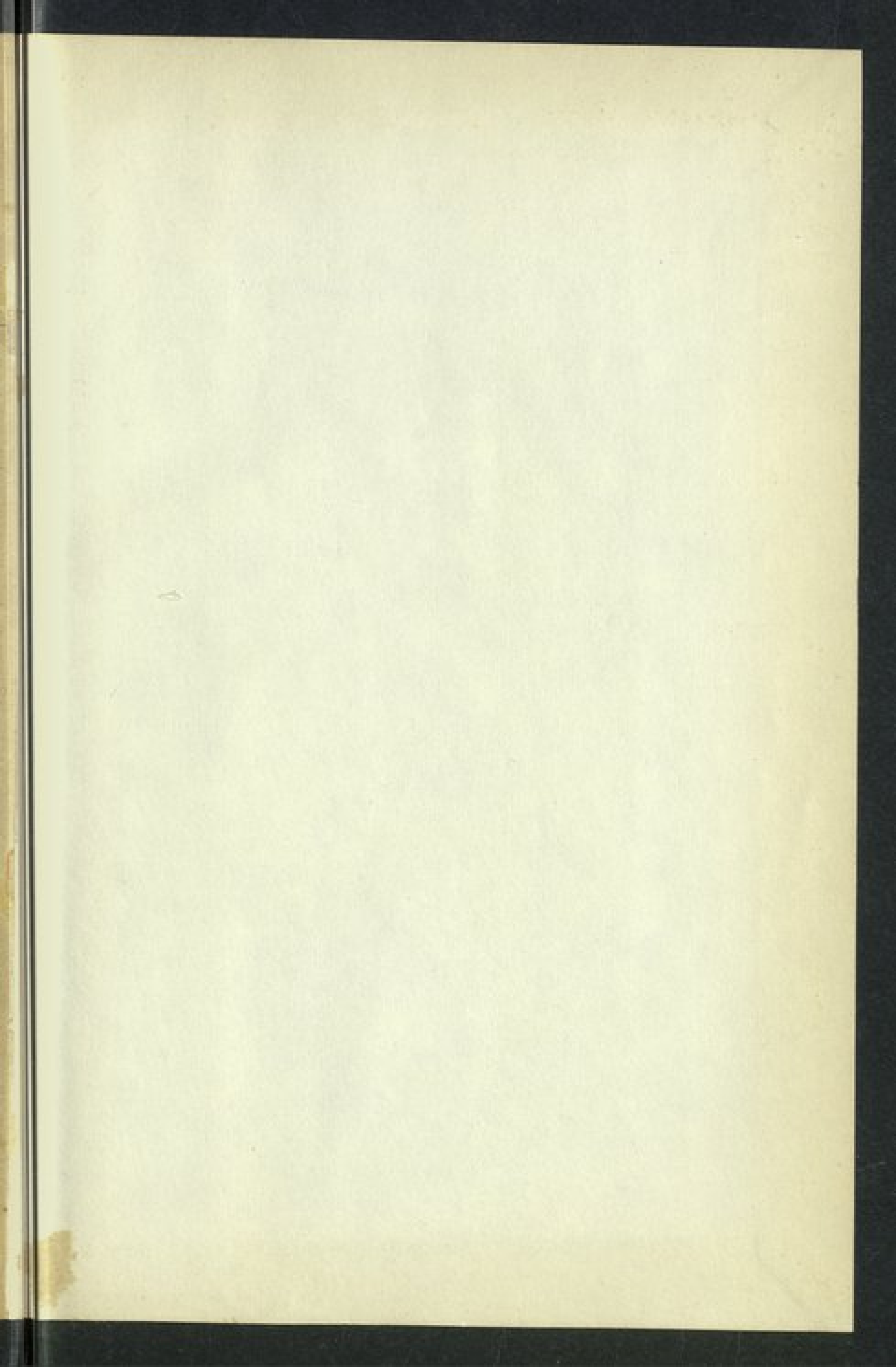



# حاضر فلسطين

مطبوعات الإيمان

١٩٣٩


AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY






# PALESTINE TO DAY

للكاتب الاميركي

*Eliho Grant*

نقله الى العربية

## منير بعلبكي

من أسرة « الايمان »

١٩٣٩

# الاهداء

الى الذين يؤمنون بحقهم في الحياة فيدافعون عنه بـ « ثورة عنيفة » او « دمعة بليغة » او « شكوى مريرة » .

الى الذين يؤمنون بأن النضال القائم في فلسطين اليوم هو نضال روحي ، سيُكتب النصر في نهايته لأرسخ الفئات ايماناً وأمضاها عزيمة وأشدها صبراً على احتمال البلاء .

الى الذين يتلمسون على هَدْيٍ من العاطفة الانسانية النبيلة هذا الجرح النديّ في جسم العالم العربي . الى الذين تُردد شعاف الجبال وثناياها صدى إيمانهم الجبار ، وتحمله في مجرى الزمن : نموت لتحيا الأجيال المقبلة ... نموت لنحفظ هذا التراث المجيد .

الى هؤلاء جميعاً تقدم « الايمان » القسم الأول من « هديتها » ؛ وهو « كتاب » كتبه « انسان » اميركي يُدعى « غرانت » مدفوعاً بوحي من عاطفته غير المسخرة ، ونشره على بني قومه علّه يُنقذ نفوسهم التي تسممت بعوامل الدعاية المشوهة .

وإن « بقايا الانسانية » المتجمعة في نفس « غرانت » والتي اوحت اليه هذه الصفحات النبيلة، لتحملنا على الاعتقاد بأن البربرية الأثيمة التي تسود القرن العشرين ، ولعلها من ابرز ظواهره ، تُصفع من حين لآخر بسوط « الانسانية المتألمة » فيتعرقل سيلها الجارف ، . المكتسح كل ما في العالم من خير وعطف وجمال ...

* * *

ثم الى الذين يؤمنون بحقهم في الحياة فيدافعون عنه بـ « حجة بليغة »

و « منطق سليم » و « عقل متزن » ... الى الذين يعتقدون بأن القضيـة الفلسطينية العربية هي قضيـة حق لا يناله أصحابه الا بمستندات تُفسر من جديد .. ومؤتمرات تعقد كل عام .. و كتب « ملونة » تنشر على الناس .

الى المعتدلين المعتقدين بأن النضال في فلسطين اليوم يحتاج الى القلم واللسان أكثر من السيف والجنان .

الى هؤلاء جميعاً تقدم « الايمان » القسم الثاني من « هديتها » ؛ وهو فصل بليغ من كتاب أصدرته « واعظة » انكليزية ( دكتور في اللاهوت ) تُدعى « مود رويدن » . زارت فلسطين ودرست « مشكلتها » عن كثب ، واتصلت بمختلف الفئات التي تعتقد أن لها حقاً في الأرض المقدسة .

* * *

و « الايمان » إذ تجمع بين العاطفة والعقل ، وإذ تقدم في كتاب واحد لونين مختلفين مما يكتب عن فلسطين في الخارج ؛ ترمي الى تذكير كل من آمن بحق فلسطـين ان النضال عن شعب يفنى بالتدريج ليُخلي الأرض التي شراها بدمه يحتاج الى تضافر جميع القوى والموارد المتولدة عن العاطفة والعقل .

فاذا استطاعت « الايمان » أن تخدم قضية فلسطين العربية بهذه « الهدية » المتواضعة ، تكون بذلك قد أدت بعض رسالتها التي أخذت بها نفسهـا ، وطوت آخر صفحة من عامها الأول مطمئنة النفس مرتاحة الوجدان .

**شفيق نفاش**

# مقدّمة

تحتل فلسطين الحبيبة مكاناً في قلبي لا يسمو عليه الا مكان بلادي العزيزة . لقد علمتني اشياء كثيرة ، و كشفت لي عن اشياء كثيرة ، فأنا حريصٌ على أن أكون بها براً كريماً . وقد انتهى بي التفكير ، بداعي الطبع الذي يجعلني حالماً اكثر مني رجلا عملياً ، الى أن أخدم تلك البقعة العزيزة بنشر كتاب عنها . بيد ان الخطر الحالي قد اضطرني الى وضع رسالة اعرض فيها للجرائم التي تقترف اليوم في فلسطين ، ضد شعبٍ مقيم أجبر على اتخاذ موقف المدافع ، تكون بمثابة مقدمة عن كتابي الكبير عن فلسطين . إن بلادي ، ايام كانت ولاياتٍ ولايات ، قد قاست عين ما تقاسيه قضية فلسطين من سوء فهم ، وتشويه للحقيقة . وهكذا نجد الفلاح الفلسطيني اليوم ، بعد ما اعتدي على أعز ما له من حقوق ، وبعد سنوات من الاستصراخ العقيم ، والاحتجاج السلمي ، محمولا على المقاومة ، وعلى الوقوف جهده في وجه ضغطٍ اقتصادي وسياسي عظيم . ان الحبشة ، وارمينيا ،

واسبانيا، وبلاد الصين، تكاد تستنفد دموع العالم، ولكنّ المأساة الفلسطينية إنما تمثل في مكان متقدم جداً من المسرح، وبحذق عظيم، بحيث أن النظارة لا تلمح شعوذة السحرة. والشعوذة السوداء، شيء يصعب على الفلسطيني العربي قبوله او مقاومته.

إن ما ارغب في أن أعمله حقاً، أو أن أحمل احداً غيري أكثر كفاءة لذلك مني، هو أن أعرّف العالم بفلسطين الأهلية (Native)، بعرض صور عن حياتها اليومية، وتفكيرها، وتحسساتها، وأحلامها، وحتى نقائصها الطفيفة. وهي كلها عزيزة عليّ وعلى مليون آخر من الناس، وإن رؤيتها تنضح بالدماء على تلك التلال الجديبة، بيد فاتح بعد آخر، لمما لا يمكن معه الصبر الا قليلاً. ثم أجمع هذه الصور الى بعضها في كتاب واحد، وأوزعه مجلداً بغلاف مرأكشي أخضر، على مليون من مقاعد المكاتب في هذه البلاد[1]. وبذلك يكون بحثي هذا عن فلسطين، المحصورة بالشواطيء المشرقية، قد أخرج للناس في حلة مشرقية، علّ في هذا ما يدعو الى بزوغ

(١) يقصد الولايات المتحدة (المترجم)

لقد قمت حديثاً بمقابلتين طويلتين مع مفتي القدس ، هذا الزعيم العربي الذي كثيراً ما طُعن فيه ، والمقيم اليوم بعيداً عن فلسطين . لم يَعْدُ بحثنا أن يكون اهتماماً عميقاً بعامة الشعب في فلسطين، ورفاهتهم في تلك الأيام (عجّل الله بها !) التي يُترَكون فيها ليعيشوا على ارضهم بسلام نسبي . فوافق سماحته على أن اموراً ثلاثة لها أهمية حيوية لكل قرية فلسطينية :

(١) جر المياه .

(٢) المساعدة الطبية والتمريضية الاولى.

(٣) التعليم الاولي المتفق وحاجات السكان المزارعين

تلك امور ثلاثة يطلبها سماحته ، بدلا من الافتراءات المرّة التي يقذف بها اصحاب الدعايات المأجورون هذه الجماعات القروية التي يطمعون في أراضيها . ومنازلها ، ومقابرها . . . في الوصايا العشر واحدة تقول : « لا تشته مال غيرك ! » . ايها الناس ، إنكم لم تحفظوا بعد هذه الامثولة حفظاً جيداً !

إن قذف القنابل من الطائرات لقتل اولئك الذين يقاومونكم ، والذين يُدعون من اجل هذه المقاومة مجرمين ، ليست جواباً حسناً لمطالب فلسطين ، بل ليس جواباً حسناً لمن يقوم بأعمال

التدمير هذه .

ففلسطين ليست بالبلد الذي تُلقى فيه بذور الدعاية ، وتحشد اعتدة الحرب . أبعدوا هذه الأساليب العتيقة عن بلد واحد على الأقل ، هو فلسطين . دعوا فلسطين في حمى سكانها ، ثم دعوا الرهبان والأتقياء الحقيقيين ، وحتى الفضوليين ، من كل العالم ، يذهبون كحجاج او سياح الى تلك المقدسات ، ولكن دعوا سلام الله يرفّ على الأقل على بلد من بلدان هذه الأرض ، لا تتسامح فيه الدول بالحروب ، ولا بالأكاذيب المتعلقة بالحروب .

. . .

قد تبدو بعض هذه الفقرات شديدة اللهجة ، « ضجرة » ، لأنها وحي سنوات من الولاء ، ووحي المنطق والحق الذي تمليه الحقائق الحية . انما الذي أحب أن اقرره هو ان ما حملني على تسطير هذه الكلمات لا يعدو الرغبة في السلام المستمد من حبي العميق لفلسطين ، واحترامي الخالص لأطيب العناصر ، واطيب النيات ، عند العوامل الثلاثة البارزة اليوم في فلسطين ، أعني العرب ، والامبراطورية ، واليهود .

# فلسطين اليوم

لم أزر فلسطين في عامي هذا[1] ، الا طوال هذه الساعات القليلة التي هبطت فيها حيفا ، ريثما استقل الباخرة الى وطني . كذلك اعلنت احتجاجي الهادي. ، بأن بقيت بعيداً عما لا يفتأ جدَّ عزيز عليَّ منذ سنوات طويلة . إنما احتج على عبث الأجانب بالسلام في فلسطين .

إن امبراطورية عظيمة تسدد اليوم قسماً من ديون الحرب التي عليها[2] بان تفرض على بلد صغير بائس جماعات من المهاجرين الفقراء اللاجئين من اوروبا . هؤلاء اللاجئون لاتقبلهم بلدان اوروبا واميركا ضمن حدودها . ففي Evian les Bains[3] اظهرت الدول مساعدة كلامية لهؤلاء المتشردين . ولكن هل مد أحدٌ اليهم يد المساعدة الفعلية ؟ ذلك شيء لم يعملوه . ولكن هذه الدول ، اعتماداً على بعض اشارات كريمة في التوراة — عفا الله عن هذا الهتر ! ( God forgive the nonsense ) — وتحت

---

(١) يقصد زيارته سنة ١٩٣٨ .

(٢) يقصد وعد بلفور

التأثير الفظيع لأكثر الدعايات العصرية وقاحة ، القت مع مندوبيها في Evian نظرة على العالم العريض ، فلم تجد مكاناً اكثر ملاءمة كملجأ للمحتاجين من فلسطين الضيقة ، تلك الأرض التي ورثها فلاحون منذ آلاف السنين ، مواطنون لم يُستشاروا في المسألة بصورة ما.

ولكن ما هي فلسطين هذه التي يكثر الراغبون فيها والعابثون بها ؟ هي بلاد مقدسة عند اديان ثلاثة كبيرة . هي بلاد عربية لألف عام او تزيد ، بلاد فلاحين ، وبستانيين ، وزارعي كرمة ، كلهم مهرة اولو حذق ، وهم اقرب الى ان يكونوا اوروبيين في مستوى حياتهم من سكان أكثر البلدان الزراعية التي خضعت حديثاً لأحكام السلطان الأجنبي الجائرة. هناك فلاحون في هذا العالم قُدر لهم أن يعيشوا على ما ورثوه من ارض ، ولو كانت قريباً من البراكين الخطرة ، ومناطق الزلزال . ان فلاحي فلسطين يجب ان يحرثوا جنائنهم وأراضيهم في وجه العالم ، لأنهم يعيشون في بلاد مقدسة . هي دونما ريب مقدسة عندهم كبلاد أجدادهم لقرون عديدة ؛ لأنهم عرب بمعنى أنهم يتكلمون اللغة العربية ، وأنهم مدينون كثيراً للتمدن العربي ، وإن كانوا في الواقع يرجعون بأنسابهم الى أبعد كثيراً

من الفتح العربي لفلسطين . وهم إنما يتصلون أوثق ما يكون بالكنعانيين الذين عمروا فلسطين قبل أن يعمرها العبرانيون والفلسطينيون Philistines ، والعرب ، بزمان طويل .

عندما هددت الفتوح العربية العالم بالاكتساح ، أخضع هؤلاء الفلاحون الذين كانوا تحت حكم الدولة البيزنطية المضمحلة ، لسلطان الجيش المغير ، ولقوة تبشيرية عظيمة . ومع الزمان دخل أكثرهم في الاسلام ، دين محمد . ولكن بضعة عشر الفاً منهم تمسكوا بمعتقدهم النصراني ، ولا يزال منهم في فلسطين حتى اليوم نحو مئة الف من المواطنين النصارى الذين ينساهم العالم . إن أمم النصرانية يجب أن تذكر أن سكاناً مسيحيين كهؤلاء مضاء وثباتاً يجب أن يكون لهم اعتبار أكثر في جميع الخطط التي توضع لمستقبل فلسطين . حقاً ان اخوانهم في الجنس الذين اعتنقوا الاسلام يفوقونهم عدداً ، ولكنهم جميعاً يؤلفون احدى الجماعات المزارعة الجديرة بالاحترام الأكبر ، فيجب ان تكون لهم كلمة في الخطط التي تتعلق ببلادهم .

ولكنهم لم يُستشاروا . لقد اطُّرح استصراخهم ، وسُخِر من ممثليهم . ولم يكفهم ان الضرائب عليهم فادحة ، بل ظُلموا فوق ذلك بهجرة نظمت لتحل المشاكل الاوروبية ، وبتجربة

تقوم بها قوى اوروبا وتفرضها بأقسى التدابير .

عندما يستشهد الفلسطيني العربي على فرض الضرائب دون نظام تمثيلي ، بثورة المستعمرات الاميركية عام ١٧٧٦ ؛ فانه يستطيع أن يزيد إثماً ما كنا لنتحمله في تلك الأيام : اعني ان شعباً غريباً مهاجراً من اوروبا ارتفع عدده من ثمانين الفاً الى اربعمئة الف في عشرين سنة يُعلن عالياً عزمه على متابعة الدخول الى البلاد ، الى ان يصبح اكثرية طاغية تستولي فيما يأتي من ايام على مقاليد السياسة في فلسطين . وعندما يتواتر هذا التهديد ، وتتتابع هذه الكبرياء وهذه الخطة المقررة ، بالرغم من كل احتجاج مهذب يقوم به سكان البلاد الاصليون ، فهل من عجب اذا كانت الحالة هناك تعني الحرب؟ هل من عجب اذا رأينا الرجال الواسعي الاطلاع ، الراغبين في سعادة الجهات المتطاحنة جميعها يعتقدون بإخفاق هذه التجربة المؤذية التي ستحمل في يوم طابع الجريمة الذي تستحقه ؟ إن هذه التجربة التي لا تعدو العشرين عاماً من العمر صارت تذكر كأنها تعدل الف عام من الصبغة العربية للبلاد . اذا كان العالم الغربي لا يستطيع أن يرى الى الحقائق في علاقاته ونزعاته ، فالعالم الشرقي يستطيع أن يقوم بذلك عنه . فلا شك ان قرابة الدم ، وعاطفة

الدين سوف تثيران الشرق الادنى كله على المظالم التي تطبق اليوم في فلسطين . ألا نرى من الواضح ان تجربة كهذه مكتوب لها الفشل سواء أكان ذلك بعد سنة واحدة ، او بعد عشر سنوات ، او مئة ؟ وباخفاق التجربة تضيع سمعة كثيراً ما شوهت ، وتضيع عقيدة وصداقة . ان التجربة ستخفق حتما ، ولكن فلسطين قد تخرب قبل أن يتم هذا الإخفاق . سوف تذبل جنائن من أجمل الجنائن في العالم القديم ، وأحبها الى القلوب ، بفضل حديد « الاصلاح » الاوروبي . وعندها يُنزَع السهم الذي أصاب فلسطين من عظام تلالها . إن التجربة ماضية في سيرها الآن . ولا تزال هنالك الى اليوم مقاطعات عذراء لم تذق بعد السم كاملاً من تُخمة هذه التجربة الاوروبية الفضولية. ولكن حتى في تلك الوديان ترقد جثث المقاومين الذين جاءهم الموت من السماء ، بفضل الطائرات البريطانية الحاصدة جماعات المحاربين ، اولئك الذين يحملون لقبين اثنين : فهم عند ابناء جنسهم اخوة ، وازواج ، وابناء ، ومجاهدون ؛ بينما هم عند صحافة العالم ارهابيون ، سفاحون ، وقطاع طرق !

اقرأ كتاباً كالذي وضعه Kenneth Roberts ودعاه «رعاع تحت السلاح » عارضاً لتجاربنا مع اسلاف الانكليز الذين

يقترفون هـذه الفضائح في فلسطين . أين نجد اليوم اولئـك الانكليز الـذين رفعوا الصوت عالياً من أجلنا في البرلمان الانكليزي وفي غير البرلمان، ايام جورج الثالث . اقرأ كجواب على هذا السوءال المقال الذي نشره الميجور ا . ت . رتشمند Major E . T . Richmond في عدد فبراير ١٩٣٨ لمجلة « القرن التاسع عشر وما بعده » ص ١٨٦ — ١٩٢
( The Nineteenth Century and After, 186-192)

وإلى جانب اهل القرى في فلسطين ، هناك سكان المدن الذين يعتمدون في معاشهم على الفلاحين ؛ الذين يشاركونهم الدم الواحد ، والجنس الواحد ، واللغة الواحدة . وهم لا يختلفون عن هؤلاء الفلاحين الا فيما تمتاز به المدن من الأنساب الراقية الى أيام فاتحي سنة ٦٣٢ للميلاد [1] . لأن فتح العرب لفلسطين سابقٌ لفتح النورماندين لانكلترا بمئات من السنين. اما فيما يختص باليهود في فلسطين ، فقد كانوا قليلي العدد أيام فتح الانكلوسكسونيين للجزر البريطانية ، وقليلين جداً منذ فتوح قسطنطين الكبير ؛ بل منذ سنة ١٣٥ للميلاد حين غيّر « هادريان » Hadrian الروماني وجه القدس ؛ وغيّر اسمها

(١) يقصد الفاتحين العرب

نفسه . فاذا قامت اليوم دولة اوروبية او انتداب اوروبي بمحاولة
فتح اميركا لارجاع الهنود الايروكيين Iroquois Indians
الى ولاية نيويورك ، فإن عملاً كهذا يكون أقرب الى المعقول ،
من مطالب اليهود في فلسطين .

ومن هم أهل البلاد هؤلاء ؟

هم سلالة شعب وطني متعبد ، عاش بعيداً في الزمن ،
مؤلف من جماعات سامية قريبة من السريان ، جماعات من
المزارعين لا هم بالرُحل ، ولا بسكان الخيام ، ولا بالمتوحشين .
هم شعب يمكن ان يطلق عليه أصح ما يكون اسم الكنعانيين .
هم سلالة هذه القبائل المقيمة على ارضها منذ آلاف السنين
والمتعلقة رغم الحروب ببلادها الحبيبة ، و كرومها ، وجنائنها ،
وبساتين زيتونها ، وقطعان غنمها وشائها ، وسهولها المزروعة
حنطة وشعيراً ، وبيوتها ، وزوجاتها ، وأولادها . . .

لقد جاست الجيوش الاوروبية خلال بلادهم الصغيرة ، كأنها
الجراد الماحق ، فرأى هؤلاء السكان البسطاء المروّعين كيف
يمتص جشع ساسة الحلفاء والدول الوسطى كل موارد بلادهم
الفقيرة ، مادية ومعنوية . كانوا خاضعين للدول الوسطى ،
ولكنهم فتحوا عطفهم وقوّتهم الضرورية ، على قلّتها ؛ للحلفاء .

لقد هتفوا لانتصارات الحلفاء كما لو كانت فتحاً من عند الله ، حتى أنهم رأوا شبهاً بين اسم القائد العام للقوات المتحالفة «اللنبي» وبين الكلمة العربية التي تعني الرسول المخلص «النبي» . والحق ان ذلك القائد ورجاله قدروا اولئك القرويين البسطاء الذين مشوا على ارضهم مشية النصر .

ولكن ما لبث ان جاء الساسة الجشعون ، وزارعو الشقاق الاوروبي ، والنخاسون ، ورجال المال ، واطلقوا الاحكام على فلسطين المحتضرة «المنطرحة امام اصدقائها بشكل ما كانت لتظهر به امام اعدائها السابقين . اقول لقد «جاء» السياسيون ، وبسحر الالفاظ الاسود ، خطوا عهوداً وخططاً ، وقرروا :

اولاً : ان يدعوا الشعب «عرباً» هذه الكلمة التي يتقبلها الأهلون اليوم بحرارة ، كرمز لجهادهم ولاتصالهم بالشرق ، ما دامت اوروبا قد اساءت اليهم هذه الاساءة كلها .

ثانياً : ان يعلنوا ان البلاد خالية [1] ، مع انها كانت ولا تزال مأهولة بنسبة عادلة من السكان .

ثالثاً : ان يصادروا البلاد بتفسيرهم المغرض ، المتحيز ،

---

(١) يقصد انها تستوعب كثيراً نسبة لسكانها الموجودين

لصك مُبالغ في السخاء كوعد بلفور .

رابعاً : ان يفتحوا فلسطين في وجه «الاصلاحات» الاوروبية . ( انجاها الله ! )

خامساً : ان يسمحوا بان تصبح فلسطين فريسة مشروعة ( الشرع الاوروبي ! ) لبعض المهاجرين من اوروبا ، الذين يرفض الاوروبيون قبولهم داخل حدودهم .

سادساً : ان يدعوا كل مقاومة لهم تمرداً وإرهاباً من عمل « الافندية » والمبعدين .. الخ . على الرغم من أن هؤلاء الافندية ليس في مكنتهم الوقوف في وجه دفاع يائس يقوم به الفلاحون عن أرض آبائهم .

...

إن العرب في فلسطين إنما يدافعون عن أعز حق لهم في العالم . لقد حاولوا لسنين عديدة ان يقوموا بذلك عن طريق الوفود ، والتمثيل ، والاستصراخ . وكأنما لم يكفهم أن ترهقهم الضرائب ، وأن يكونوا فقراء الى المال ، والى الدعاية الصحفية ، حتى يكونوا اليوم تحت رحمة « تخيلات » اولئك الذين يطمعون في بلادهم ، ويتبعون سياسةً هادمةً لسلامهم وسعادتهم ، اولئك الذين يَرشون فقرهم بشراء الاراضي في سوقٍ حرةٍ

يتعرض فيهـا للسجن والنفي والابعاد كل من يحتج على « التجربة » الرهيبة .

والحقيقة عن قضية الفلاح الفلسطيني قد اخـذت تنبثق الآن رغم مختلف القوى العاملة على اخفائها او تشويهها . وقـد بلغ طمع بعض الأجانب في فلسطين حداً جعلهم يعتقدون أنهم يرون الحقائق بوضوح على غير حقيقتها ، وما كانت عليه طوال هذه المئات والآلاف من السنين ... ليس هنـاك مكان في الأرض يُدعى فيه الأبيضُ اسودَ أكثر من فلسطين اليوم ، ومن كل ما يتعلق بفلسطين .

إن الشرائع ، والمنطق ، والحق . كل اولئك تعطي الأرض لأصحابها من العرب . ليكن الدُخلاء ضيفاناً مؤدبـين ، او حجاجاً و مصلين ، ولكن شرط ان يُمنع كل مسلك شاذ يُبدل من لطف السكان ووداعتهم .

كيف كانت الحال في فلسطين في القرن الذي سبق الحرب العالمية ؟ لنرجع الى تلك السنوات ، ولننظر الى الحالة الطبيعية قبل اشتداد الحُمّى . كيف كان موقف أهل البلاد من السياحة ، والحج ، والتجارة ، والمثل العليا ؟ إن أهل فلسطين يستطيعون اليوم ، بقليل من الاستقلال ، أن يقفوا من هذه المسائل كلها

موقفاً أفضل كثيراً من موقفهم الأول فيما قبل الحرب ، أيام لم يكن لهم من الاستقلال شيء . نريد السلم لفلسطين ، ولكن السلم مع الشرف . نريد ان نزور المقدسات ، وان يكون هناك مكان واحد لم تدنسه المنازعات الاوروبية والغدر الاوروبي . عندها يقيم المسيحيون والمسلمون واليهود في حال اسعد من حالهم اليوم في ظل هذه المحاولة التي يقدم عليها الانتداب .

ولا شك في أن سائلاً سيسأل عن الأديان في فلسطين ، وان هذا السائل سينسى الحقائق سريعاً بعد ان يجاب : ان في فلسطين مئة الف من السكان المواطنين ، النازلين في المدن والقرى ، والعاملين في الزراعة والتجارة ، و كثير منهم مثقفون ثقافة عالية . فهل يذكر العالم ذلك ؟ ان المواطن الفلسطيني المسيحي سُلالة النصارى الأول في زمن يسوع ، ووارثهم على أرضه ، وعلى البلد الذي لقي فيه الموت في سبيل الحق ، ان هذا المواطن المسيحي هو الرجل الذي يُنسى اكثر مايكون في العالم الحديث كله ، بينما ان اكثر اخوانه في الدم والجنس والمظهر انقلبوا الى الاسلام منذ أكثر من الف وثلاثمئة عام ، ولما يزالوا عليه . اما اليهود فلم يكن عددهم ليزيد عن خمسة وسبعين الفاً في الاعوام

التي سبقت الحرب [1] ولم يكونوا في بلد من بلاد العالم افضل حالاً ، ولا اسلم منهم في فلسطين . ولكنهم في ذلك العهد كانوا يتبعون دينهم ، ولم يكونوا قد مدوا الذراع بعد للدول العالمية. وانا اعتقد جازماً ان الطبقة المختارة من اليهود ، في العالم كله ، تعتقد ان الحالة كانت قبل الحرب العالمية افضل منها فيما بعد هذه الحرب . ان لي اصدقاء يهوداً كثيرين مقتنعين بهذا كل الاقتناع .

أليس افضل لليهودي الحق ان يذهب الى مقدساته الدينية كحاج ورع ، وان يهاجر الى هذه البلاد نفسها كمواطن متى اراد ، فينجو من جُثام المادية ، ومن الصهيونية السياسية ، ومن الدعاية الوقحة ، ومن المطالبة الجهورية بالحقوق المطلقة ؟ لماذا يُنكر حق المسيحي الورع ، والمسلم الورع ، والهدوء النسبي الذي ساد البلاد ، في ظل مختلف الأنظمة الحكومية والاجتماعية ، لمئات من السنين لم تشهد من الفظائع ماتشهده البلاد اليوم بسبب وجوده هناك ، والطريقة التي جاء بها الى هناك ؟ اذا قنع اليهودي بذلك ــ بان يزور المقدسات حاجاً ،

---

(١) هذا العدد مبالغ فيه لان اليهود قبل الحرب لم يتجاوزوا الاربعين الفاً

ويعيش في البلاد مواطناً لا هدف سياسي له ـ عندها تكون له جامعته ، وخدماته الطبية والانسانية ، وتجارته المهذبة ، وحركات شبابه ، ومُثله ، ودينه ، وروحه ؛ هذه الروح التي يبيعها رخيصة في سوق الكساد السياسي .

# تحذير للانكليز

## (١)

كلامي هذا موجه الى الانكليز الذين خدموا بلاد الشرق على الطريقة المسيحية العذبة ، طوال عشرين عاماً وتزيد ، والذين يعرفون هذا الشرق ويعرفون العرب ، والذين اطلعوا للعالم امثال لورنس Lawrence ، وهوجارث Hogarth ، وبالمر Palmer وأللنبي Allenby ، واخيراً اذكر من الأحياء الذين يقدرون العربي قدره « رتشمند » Richmond الذي ارجو ان يقرأ كل مقالته في عدد فبراير سنة ١٩٣٨ من مجلة « القرن التاسع عشر وما بعده » ( The Nineteenth Century and After ) (ص ١٨٦ — ١٩٢)

انظروا الى آلاف الصور الفوتوغرافية التي تمثل اعمال « سلطاتكم » في فلسطين اليوم ، من اخراج للناس من بيوتهم ونسفها بالديناميت ، ومن مشاهد التمثيل بالحراب ، والتدمير

---

(١) في الاصل : « افيقي يا انكلترا » ( Awake , England ) ( المترجم )

بالمصفحات والطائرات والغازات والقنابل والجوع . انكم تضنون بزرائبكم واصطبلاتكم ان تضعوها في ايـدي من يمثلكم اليوم في فلسطين . ومع ذلك تدعونهم يحملون اسمكم وسمعتكم بين فلاحي بلاد مسالمة ، يلقون فيها الرعب كل يوم، ويُنزلون بقراها عذاب الهون كلما بدا لذاك الفـلاح الذي لا يملك سوى بضعة من الفدادين ، وشيء من الأدوات ، وبقرة ، وزوج من الماعز ، فإن أيْسر فخروفاً وبعض الدجاج او كرماً من العنب ؛ كلما بدا لهذا الفلاح المسكين ان يثور في وجـه جلاديه الذين يعيشون على الضرائب التي يسلبونها منه .

ان احد ابنائكم ، وهو موظف في ناحية من البـلاد ، اخبرني ان احدى مُهماته ان يمحو كل اثر لبيوت الضيـافة في القرى ، تلك المواطن المتواضعة للاخوّة والديمقراطية ، لأنه يعتبرها متمردة وضارّة بالامبراطورية .

تصوروا الاستفزاز بفلسطين في العشرين السنة الماضية ، بل في الشهور العشرين الماضية . ومع ذلك فاني استطيع اليوم ان ادلكم على اماكن في فلسطين تجدون فيها الرقة والسلام اللذين عهدناهما عند السكان قبل ثلاثين عاماً ، ومـا ذلك الا لأن « تجربتكم » لم تصل اليها الا قليلا .

أعرف صديقاً مسيحياً عزيزاً علي ، طيباً حتى لكأنه القديس ، جاء الى هذه البلاد من قلب انكلترا المحبة للسلام . قال لي هذا الصديق يوماً وكنا في معرض الكلام على احد طلابي من اهل البلاد : « نخاف ان لا يكون مخلصاً ! » ولمن يريده ان يكون مخلصاً ؟ أللامبراطورية ؟ ام لمضطهد اعتاد ان يرى فيه قوة ممدِنة في العالم قبل ان تجعل منه هذه «التجربة» طاغية جباراً ؟ ان هذا ليذكرني بالملاحظة التي ابداها موظف ايرلندي يخدم في فلسطين ، لموظف آخر وطني ، ومن الوجهاء ، تخوله دراسته في اوروبا ان يخدم كل قضية صالحة في الشرق الاسلامي . لقد اخذ عليه الايرلندي ان يشعر « اكثر من اللازم » مع فلاحي منطقته ... اما نحن ، فلنذكر ان كتاباً ابيض صدر منذ بضع سنين ، وفيه إدراك رحيم لحالة المواطنين العرب البائسة ، وأن هذا الكتاب ما لبث ان أقفل عليه رسمياً الى غير ما رجعة ولكن تحت اي ضغط ؟[1]

أي انكلترا ! إنك تظلمين انكلترا التي كنا نحب ! انت لست صريحة ، لست انكليزية ، في فلسطين على الأقل ! أترتعشين

(١) يقصد به الكتاب الابيض الاول سنة ١٩٣٢ الذي ايد حقوق العرب واستطاعت القوى الصهيونية في دوائر انكلترا ان توقف تنفيذه ..

اشفاقاً على الحبشة والصين واسبانيا وتنسين فلسطين ؟! ان هناك الكثيرين بين آلاف اللاجئين الفلسطينيين الى سوريا، ومن مئات العقول الراجحة من الفلسطينيين في مختلف الاقطار، الذين يستطيعون ان يساعدوك في فهم مهمتك نحو الناشئة الفلسطينية المثقفة.

كنا في الزمن الخالي نسمع عُواء ابن آوى في الكروم. اما اليوم فالذي نسمع هو عواء الاسلحة القتالة وقعقعتها. كانت الضبع في الزمان الخالي تحوم حول اللحوم الميتة. اما اليوم فالذي يحوم هم اولئك الذين يهيئون الموت في كل يوم للمسابقة الفظيعة، تلك المسابقة بين كناس الشوارع وبين اهل الميت الذين يرجعون اليكم، في حزنهم هذا، ليسألوكم السماح لهم بجثة صاحبهم الذي لا يأخذونه الا بعد انزال العقوبات الرسمية بناء على اوامركم.

لقد نظرتُ الى الطيور الجارحة تتقدم خلسة نحو جثة حمار ميت. ان هذه الطيور لا تحتاج ان تحيا على لحم الحمار بعد اليوم... في فلسطين!

كم تحبون هذه الجماعات المتواضعة المؤلفة من مسيحيين ومسلمين! كم تحبون اليهود المضطهَدين! لقد برهنتم على ذلك

— انتم ودول اخرى غيركم — في مؤتمر Evian les Bains .
تقولون ان الدول جميعاً قامت بهذا الموءتمر ، ولكنكم انتم الذين وصفتم الدواء : وهو ارسال ضحايا الخمسة الاوروبية الى فلسطين .

وماذا تقولون في الحجاج الأتقياء ، من بلاد العالم جميعاً ، الذين يتوقون الى الحج سنوياً الى بلد السلام والذكريات المقدسة ؟ لماذا ساعدتم على تنفيذ « التجربة » المدمرة ؟ لماذا تتابعونها ؟ هل اذهلتكم التطورات التي طرأت على فلسطين منذ ١٩١٦ — ١٩١٧ ؟ ألا تستطيعون أن تتلمسوا كل خطوة أدت بالبلاد الى الخراب الحالي ؟ هل تجرؤون على ان تسألوا جيرانكم ؟ هل تجدون ابداً صديقاً وحليفاً يعتمد عليه كالعربي ، أياً كان ؟ تذكروا الثقافة العربية الضخمة التي اخذتم بها انفسكم ، تذكروا آثاركم العلمية العربية ، ورجال سياستكم المستعربين ، تذكروا المستشرقين المسيحيين الأحياء الى هذه الساعة . هل تذكرون ؟ وهل تفعلون بما تقضي به الذكرى ؟

وعندما يرجع موسم الكرمة الى فلسطين ، في شهر آب ( اغسطس ) وما بعده ، موسم المسرة ، هل سيكون لكم النصيب في ان تدوسوا معاصر الخمرة هناك ؟ أو من هم مندوبوكم

للقيام بهذا العمل ؟ أي شيء سيكون تحت اقدامكم ؟ واي لون ستصطبغ به ارجلكم ؟

هل وجدتم بالتجربة أنّ ذلك كله ضروري ؟ هل قدّرتم ما هي عواقب هذا العمل ، وما اذا كنتم ستكونون ، في يوم ، فخورين بالنتائج ؟اي شعبٍ من الشعوب قد عذَّب الأرض المقدسة واهلها المحقين بقدر ما فعلتم انتم ؟!

هل هي فلسطين التي تحبُّونها حبَّكم الأعظم ، ام تلك الموصل ، أم الهند ، أم السويس ؟ واذا كنتم تحبونها جميعاً ، فما الدافع الى هذا الحب ؟ هل انتم محبون حقيقيون لانكلترا ، ومخلصون لها ، انتم يا من حرَّر العبيد ؟!

هل الفلسطينيون شعبٌ غيرُ صالح ( Bad people ) ؟ هل تعتقدون حقاً أن هؤلاء الفلاحين المعدمين إرهابيون ؟ اتذكرون التمجيد الذي استقبلوكم به واستقبلوا رسالة العدل والسلام فيكم سنة ١٩١٧ ؟إنّ بعض أمواتكم لابدّ يذكرون ولكن أليس فيكم عددٌ كاف من الأحياء الذين يذكرون ، أو يتقون ، أو يفهمون ؟!

هناك إلى جانب « فلسطين الأرض » (Palestineof place) ما قد ندعوه « فلسطين الحلم » ( Palestine of Dream ) .

و « فلسطين الحلم » هي التي يحق لكل إنسان أن يهتم بها .
ولكن عندما يأتي الأجانب ليقبضوا على « فلسطين الأرض »
او تتدخل وزارة الخارجية او وزارة المستعمرات بها ، فعندها
تنشأ مظالم كثيرة ، وعندها يبدأ الشقاء وتبدأ السخريه . اختبروا
ذلك على ضوء تجارب الماضي ، متى شئتم و كيفما شئتم .

في اي بقعة من هذا العالم المضطرب تتصل أديان العالم هذا
الاتصال الوثيق ؟ في اي بقعة من هذا العالم توجد هذه الفرصة
السماوية لتطبيق ما ندعوه « عدم الاعتداء » ؟ ضعوا حداً
للمساومة على فلسطين . اوقفوا الرشوة الغربية التي تقدمونها
لفلاح تلك البلاد المعدم . إن اللياقة تقضي بذلك .

إنّ المدن والأماكن المقدسة تصبح مراكز للهجوم حين
يقوم فى النية الاستيلاء عليها بالثمن البخس . فحذار ايها
الأجانب . لأنكم اذا تعدّت أحلامكم وحبكم لفلسطين
حقيقتها لتصبح تملكاً لأراضي البلاد ، واذا رغبتم في ان تقبضوا
على حفنة من تراب البلاد بدافع النفع الشخصي ، غلظت
ارواحهم ، وبَعُدَت عن الجمال والمثالية جميعاً .

إن السيف قد يكونُ خطراً . ولكن قلم الكاتب الواقعي
كان ولا يزال اشد رهبة وخطراً على السلطات في فلسطين ،

الارض المقدسة . انظروا اليها اليوم . ليخبركم الذين أُوتوا العلم عن حالها كيف كان قبل الحرب العالمية اي آدمي يقول بإمكان المقابلة بين الامس واليوم . لقد كان التركي رجلا حالماً ، كان شاعراً ، وفيلسوفاً ، بل كان قديساً إذا قوبل ببعض الذين يُطلقون عليهم لقب « رجال الدولة » ، اولئك الفضوليين الذين عرفتهم البلاد في العشرين السنة الاخيرة . اقرأوا كتب الرحلات لخمسين او مئة سنة قبل ١٩١٧ ، وتأملوا في العوائق المتعددة ، والغدر الحقير ، والمادية السمجة التي كان يلقاها الرحالة في طريقه ومع ادلائه . ثم قابلوها بويلات الادارة الاوربيـة السيئة في السنوات الأخيرة بفلسطين . إن تلك الجزئيات والصغائر التي كانت تقع في سني ما قبل الحرب لأشبه شيءٍ بعبث الطيور المُستضعفة بالنسبة لما تقوم به الأنمار والضباع ، والطيور الجارحة

# نداء الى العرب واليهود

سوف تجدون أن مصالحكم اقرب الى بعضها منها الى أي دولة اوروبية ، او أي مصلحة أجنبية مهما كانت . إن لكم في الجنس ، والدين ، واللغة ، والولاء للمصالح الشرقية في كل أرض ، ما يجعل من الحسن لكم أن تتفاهموا فيما بينكم ، دون أن تفسحوا المجال للتغرُّض الاوروبي . إن صداقة العربي خيرٌ لكم من أي صداقة أجنبية ثانية . فأنتم لا تستطيعون إنكار حقوقه التاريخية ، والثقافية ، والجغرافية ، والاقتصادية ، إلا في محنتكم . إسمعوا الى هذه النصيحة : إن العربي لا يمكن أن يُخدع او يُخوَّف .

ليست المسألة مسألة « ساميّ » Semitic و« لا سامي » Anti - Semitic ما دام الطرفان المتنازعان ساميّين ، من عرب ويهود . والعرب اكثر ساميّةً من يهود اوروبا الحاليين .

ثم إن المسألة ليست مسألة جنس او دين ، لأن العرب واليهود في هذا ذوو قُربى .

إنها مسألة اقتصادية : مسألةُ ملكية ، ملكية ارض ووطن . ففلسطين كانت وطناً للسكان العرب طوال القرون الثلاثة عشرة الأخيرة ، مع انقطاع قصير ايام الحروب الصليبية وأخطائها . أما اليهود فيخدعون انفسهم بادعاء حق سابق لهم لا يمكن أن يقوم ( يثبت ) في الحقل الاقتصادي . وهل يصح أن حقاً دينياً صرفاً يمكن أن يصير الى حق في ملكية البلاد والسيطرة السياسية عليها ؟ إن هذا لخلط غريب أشبه بالكيمياء القديمة .

أتريدون ما تريدون في المكان الذي تعيّنون والمدة التي توقتون؟ إن هذا لما لا يُستطاع فهمه . ولكن هل اتبعتم الوصول الى ذلك السبيل الصحيح ؟

# الأرض التي لا ينساها احد

تحتل فلسطين في مخيلات الملايين البعيدين عنها ، والذين قد لا يرونها ابداً ، مكاناً بين البحر المتوسط والاردن ، وبين جبال لبنان والدلتا المصريـة . هي بلدٌ صغير ، وثائرٌ اليوم ، لا ينساه أحد من المذاهب السامية الكبرى ، والمذاهب الكاثولكية والرومية التي ينزع رجالها الرسميون جميعاً إلى ان يكون لهم يدٌ في إدارتها . إن سكان فلسطين الاصليين مزارعون لآلاف عديدة من السنين ، تبلغ الخمسة جزماً ، ولكنها قد تعدو هذا العدد إلى ضعفه . وقد كانت للدول كلها — الا الصين واليابان — مصالح في فلسطين ، فهي تحاول الضغط عليها . و كثيرٌ من هذه الدول حاربت على ارضها ، سواء أكان ذلك ضدها ، أو في سبيلها . وعلى الرغم من هذا ، فإنّ سكانها انفسهم يسألون أن يتركوا ليعيشوا مستقلين . ولكنْ لا ، ان قوى اعظم من اهل البلاد تصر بين الحين والحين على الخروج بهم الى تلال بلادهم كيما يصابوا هناك .

لقد قام النزاع بين الجرمان والأتراك من ناحية، وبين الانكليز واللاتين من ناحية، على هذه البلاد . فوضعت الضرائب على الفلاحين الفقراء، وسلبت أموالهم، واستنزفت دماؤهم . ثم وضعوا آخر الامر موضع المقارنة الخاسرة مع شعوب اخرى اوروبيه . والآن بعد أن أنكروا عليهم حقهم بالاستقلال، ولأنّ ذلك يتفق ومصالح الدول النفعية، يُقترح إرسال مهاجري اوروبا القاريّة البائسين، بالآلاف العديدة، ليُثقلوا الأرض المعذبة . كان بالاستطاعة إسعافُ هؤلاء المضطهدين الاوروبيين إلى ان يبلغ المهاجرون العشرة او العشرين بالمئة من مجموع السكان المقيمين بفلسطين . ولكن ما كاد انتداب العصبة والسلاح البريطاني يفتحانِ أبواب فلسطين عنوة لايواء الجماعات المحتاجة من اليهود، حتى اقتنعوا بشراسة أن البلاد يجب أن يملكها اليهود، وأنهم يجب أن يفدوا اليها إلى أن يفوقوا أهلها عدداً .

إن الاضطراب بفلسطين اليوم إنما يرجع مباشرة إلى عزم اليهود على أن يملأوا البلاد وأن يحكموها، وإلى إعلانهم لهذا العزم. هل هذه هي الروح الصحيحة اللاجئين الباحثين عن مأوى؟ وبأي خبثٍ اصبحت الحاجة إلى ملجأٍ ومنزل، طلباً للسيطرة

السياسية على البلاد كلها ، وعلى سكانها ؟

لقد قدمت اقتراحات وحجج كثيرة لحل المسألة الفلسطينية وتداخل يهود ، كثيرون ، وتعارضت المنشورات وتضاربت ، وسخر من الطبيعة والمنطق جميعاً . وكل ذلك لا يجدي . فلولا كان في محاولة إسكان شعب جديد في هذا البلد العتيق شيء من الغناء ، لكانت الملايين المتدفقة من المال الاوربي في العشرين السنة الأخيرة ، وحراب بريطانيا وكل ما أعدت من قوة الأرض والبحر والسماء ، قد نجحت حتى الآن . ولكنها أخفقت كلها .

إن سكاناً مزارعين يتعشقون أرضهم ، وسكان مدن فخورين بتراثهم ، ومتأثرين بعواطف دينية واقتصادية لا يسمحون أن يروا الى خرابهم رأي العين ، على أيدٍ اوروبية . وإذا لم يُعترف بهذه الحقائق سريعاً ، فلا يبعد ان تتدخل في المشكلة قوى أسيوية ، بل أفريقية ايضاً ، تحمل اوروبا على الندم لاغتصابها فلسطين .

أليس معقولاً أن نتصور إحدى الدول التي اجتمع ممثلوها في Evian les Bains ، او كلها ، تقبل بين رعاياها بعض اليهود ،

او كثيراً منهم ، فتنقذهم من البلدان التي تضطهدهم؟ هل تقوم هذه الدول بعمل كهذا ؟ ام انها تتابع ما بـدأت به من حمل فلسطين الضيقة على قبول نسبة مئوية جديدة من المهاجرين ، المهددين لمصلحة سكانها الاصليين ، ورفاهتهم ، وحياتهم ؟

سمّوهم العرب في فلسطين، او ماشئتم . فالحق ان كثرتهم المطلقـة مزارعون ، يقطنون القرى والمدن منـذ القرن السابع للميلاد .

كان اليهودي يُعامل أحسن المعاملة في فلسطين ، كما كان كل قادم جديد الى البلاد، قبل تصريح بلفور الانتـدابي السياسي ، وقبل مقترحات التقسيم الحديثة هذه ، ولم يقم شيء من الاضطراب في البلاد إلا بعد عزم الجمعيات اليهوديـة على تملك البـلاد ، عزماً بثت له الدعاية العريضة ، على أساس من رغبة اليهود القديمة فيها ، ومن أموالهم الحاليـة ، ومدنيتهم العليا . هذه النيات والادّعاءات أثارت أشد أنواع الحنق والسخط عند السكان .

ولا شك أن فلسطين والبلاد التي تجاورها ليست مأهولة حتماً بنفس الشعوب التي سكنتها في أعصار التاريخ ، ولكنها لا تعدم بين سكانها جماعات مستعدة لان تحتل مكانها من

القيادة العقلية ، عندما يسمح لها عالم السياسة المضطربة بذلك الاطمئنان الذي يجب أن يسبق كل عمل خيالى أو تفكيري مبدَع . إن عامة الشعب في هذه البلاد محبون للسلام، وذلك ما ينتظر من شعب عرف من ويلات الحروب ما لم يعرفه شعب آخر غيره. إن النبوءة، والديمقراطية، والشعر، والفن، والخطابة، كل أولئك انما وُلدت على تلك الأرض ، فاذا ما تعطلت اليوم الى حين، فبسبب النزاع والجشع اللذين أخذا في احراقها . إن الشعب في فلسطين يتوزع بين فلاحين ، وبستانيين ، وتجار ، وقواد قوافل ، وحجاج ، ومنقطعين إلى الثقافة والعلوم فأي شعب هو هذا إن لم يكن ثمرة من ثمار السلام ومقتضياته ، ثمرة راغبة في هذا السلام نفسه ، متعطشة اليه ؟

# شواطئ شرقية

كثيراً ما نجد كتباً مجلدة بذلك الجلد الثمين المدعوّ Levant (وهو جلد الشاة الممتاز بنعومته وجماله، ويعرف احياناً بـ Morocco ). كذلك نجد بلدان شرقيّ البحر الأبيض، الرقيقة في اصلها، الخشنة في مقاومتها، والجميلة غالباً حتى في محنتها، نجد هذه البلاد محصورة بتلك الشواطىء التي تبزغ منها الشمس، والتي تُعرف لذلك بالشواطىء المشرقية Levantine [1]. وما دام هناك هذا الترادف اللفظي، فسنظل نفكر في الشبه بين هذه الأصقاع التي وُلدت فيها الكتب، وبين الكتب نفسها. أي دروس، وأي قصص الانسانية النادرة، وعوالمها الأدبية، تنفتح امام العقل المخلص حين يلقي نظرة على هذه البقاع التي وجد فيها بنو الانسان انفسهم، والتفتوا فيها

---

(١) يقصد الكاتب الى نوع من البديع، هو اقرب ما يكون الى الجناس اللفظي بين كلمتي ( Levant ) بمعنى الجلد الثمين الذي تجلد به الكتب، وبين ( Levantine Skores ) أي الشواطىء المشرقية. وقد افاد الكاتب من هذا معنى يقيم بين الشرق والعلم نسبة وسبباً

الى انفسهم ، وسجلوا أعمق اختباراتهم بمساعدة الأبجدية ، والأزميل ؛ والريشة !

هذه الشواطي، تشمل مصر ، وجزيرة كريت ، وبلاد اليونان ، وآسيا الصغرى ، وسوريا ، وفلسطين ، وبلاد العرب ، وحتى العراق . فاذا ما وصلنا الى العراق استطعنا ان نزيد بلا شك فارس والهند ، اللتين هما بدورهما مهد ذلك الوعي الذاتي العظيم Self - consciousness الذي يقيم الحدّ الفاصل ، مع الذاكرة والخيال المبدع ، بين الحياة البشرية ، وأي حياة حساسة ثانية .

## تأملات

عندما يدعو فلاحو « ديرليوان » انفسهم « عرباً » ، فإن في هذا الاسم السائد اليوم في الشرق الأدنى ، ما ينبي، بقيام صيحة اتحادٍ تجسّد "حلم هذه العشرات من الشبان الذين ذاقوا طعم الصحاف الغربية، في اوروبا وامير كا ، كما ذاقوا طعم صحاف بلادهم الفلسطينية .

إن كلمة الأجنبي ووعوده خسرت كثيراً من قيمتها عندهم، مع انهم انما تثقفوا في مدارس مختلفة ، كلها غربية .

لقد أتى على آباء هؤلاء الشباب حين من الدهر كانوا فيه يفتخرون بجزيرة العرب ،ومساحاتها العريضة ،وتخومها الطويلة، وقوافلها ،واماكنها المقدسة ،ولغتها الفائقة ، ومعجزتها الكبرى القرآن ، وابطالها وبطلاتها ، وجيوشها ، وسيوفها ، وخيولها ، واغانيها . وكان الشبان يصغون اليهم باعصاب هائجة ، وعيون برّاقة . وفي الوقت نفسه ، كان بعض ابناء عمومتهم في امير كا، يغدقون عليهم من المال ما لا عهد للقرية به من قبل . امير كا،

أرض الثراء السريع الاسطورية ، أخذت تنمو في خيال الفلسطينيين جميعاً . فالمئات من السوريين الذين رادوا الاميركتين ما ابثوا أن أتبعوا بآلاف غيرهم ، حتى لأصبح اليوم في الغرب عشرات الآلاف من الشرقيين .

أما النتائج لهذا فواضحة ، ولكنها غير مُرضية في جملتها . لقد أُقيمت في القرية عشرات من البيوت الحجرية الكبيرة ، ظل اكثرها خالياً ، على حين أن قسما منها استُعمل بعض الاستعمال . ولم يكن في البيوت « الاميركية » الكبيرة شيء جديد ، فكل القرى المجاورة كانت تعرفها . وهكذا كنت حيثما سرت تجد منازل ذات تكاليف كبيرة ، تلفت النظر بألوانها الزاهية من ابيض ورمادي وأحمر قرنفلي ، لأنها مبنية من حجارة القرية الكلسية الجيدة ، ولأنهم اقاموا فيها درابزينات من حديد ، و « أيدي » نحاسية للابواب ، ومشاجب ، وغيرها . أما السجاد ؟ وهل يمكن أن يوجد في العالم افخر من السجاد الشرقي ؟ يكفي أن تأخذ بعض السجاد الغربي المقلد لتدرك سموّ الشرقي . بل ان هذه المصنوعات الشرقية الملونة كالتي تخرجها الانوال الأهلية ، كانت أفضل بكثير من السجاد الاوروبي ، صُنع المعامل والآلات .

قد يكون هذا السجاد الشرقي هو الذي جعل بعض حديثي النعمة من مهاجري الفلسطينيين يفكرون بشيء من التؤدة اكثر ، في الفروقات بين الشرق والغرب . فالرسم « النقش » غير المنتظم في السجادة الشرقية الأصيلة التي تشيع الحياة ويشيع التنوع في خيوطها ، يحمل المفكر على المقابلة بين المصنوعات الغربية ، ومصنوعات بلاده . أما فيما يتعلق بالمآكل فلكل قرية ما تفضله . نذكر شيئاً متواضعاً جداً كالجبن البلدي . فأين في العالم نجد أفخر وأحلى مذاقاً من حليب الشاة المصنوع في هذه البلاد جبناً ، هذا الجبن الذي تثير نكهته ذكرى من أقدم الذكريات في نفس الصبي الفلسطيني الذي قد يكون طوّح بنفسه الى شيكاغو ، أو الى مكان آخر اسوأ وأدنى ؟

قد نجد السجاير والسيجار والانبوب ( الغليون ) في اوروبا واميركا بسهولة لا نعرفها هنا . ولكن اين نجد ، في غير هذه البلاد ، هذه السلوى التي تمنحنا اياها النارجيلة ذات التنباك الذكي ، المشتعل بهدوء ، تحت نار الفحم ، والانبوب الطويل الذي يسبح فيه الدخان ؟ بل أين ، في غير هذه البلاد ، نجد فلسفة الأقدمين تحيا على ألسنة المدخنين في مجالسهم الاخوانية ؟

والسيارات من حديثة ومن قديمة متداعية تخترق شوارع فلسطين. فهناك شوارع حسنة، لا يشوبها الا السرعة والأوساخ التي لا معنى لها، اما الدروب الصالحة، الهادئة، الضيقة، بين العرائس والكروم، القاطعة للتلال والبقاع، والتي يسير عليها الحمار والحصان والانسان فتعطي المرء متسعاً من الوقت يتناجى فيه مع الشروق والغروب، وسائر مظاهر الطبيعة، كما تعطيه الوقت لأن يعرف نفسه.

أما الملابس، فالجميع هناك يتفقون معنا حين نضجّ من ضيق الملابس الغربية وعذابها، ونقابلها بالملابس الشرقية.

إن الشرق سوف يقلد الغرب بما يقدّمه له من لهو وعبث، ثم يتقيأه آخر الأمر. وليس في هذا شيء جديد في الواقع. فالتطرف لا يتفق والانسانية العاقلة، وهي لا بد تتجنبه وتحاذره كما فعل الشرق من زمن بعيد. «إن الآلهة تجعل من اولئك الذين تريد خرابهم مجانين أولاً» ولا يبقى على الجنون إلا اولئك الذين كُتب عليهم الخراب. لقد كان رجلاً قريباً جداً من الشرق، رجلاً إغريقياً قديماً، ذلك الذي اعطى العالمَ الهيليني أثمن شعار له: «لا افراط في شيء» (Nothing too Much)

عندما جاءت اوروبا الى آسيا بأكثر حروبها وحشية،

فلوّثت نساءها ورجالها ، في سبيل تناحر تجاري كبير ، ظهر للناس كأنما المادّية تعمل اسوأ ما تستطيع لتشوّه العالم . بيد ان بعض الغربيين ، ولورنس في مقدمتهم ، أظهروا أن الغرب لا يزال يملك روحاً . ثم جاء السياسيون والمتعيشون باسم الامبراطورية وباسم النفاق فكسروا قلب لورنس ، وقطعوا على كثيرين من الغربيين أحلامهم . ولكن الشرق تابع حُلمه هذا الذي كان أجمل بكثير من أحلام اوروبا البشعة . كان الشرق يحلم بأمة عربية موحدة . والأتراك الذين ليسوا عرباً حلموا أيضاً بدورهم . على حين تقلبت مصر في فراشها ، واستفاق العراق ، وحارب الحجاز في سبيل أحلامه .

ثم إن سوريا من طرف ، واليمن من الطرف الآخر للعالم العربي ، تاقتا وحنّتا ، وحققتا ما تاقتا اليه . أما فلسطين البائسة ، تلك القطعة الصغيرة ، بذرة البذور ، وحُلم الأحلام ، فكانت تتدافعها الأيدي والأذرع ذات اليمين وذات الشمال ، فنالها الخزي والدمار ، وحلت عليها لعنة مختلف العابثين والمدّعين . لقد اعتُبرت ارضها مقدسة عند عدد من الناس يُربي على ما تستطيع اوروبا استيعابه بطلاقة . وعلى الرغم من ذلك فقد صوّب المدّعون نظرة جشعة ويداً باطشة على بلد صغير ذراعي .

لقد أمر المزارعون جميعاً أن يذهبوا الى رمال الصحراء، عند ابناء عمومتهم، وكان على ارباب الجنائن والبساتين ان يرحلوا الى القفار القاحلة، ذات الواحات النادرة ... في هذه الغمرة، كان الله يضحك ... !

إن بلاد العرب المستطيلة، الممتدة بانحراف بين آسيا وافريقيا، والتي تبلغ حوالي ثلث مساحة الولايات المتحدة، هذه الصحراء الرملية تنعَم بأطراف خصبة على ضفاف البحار والأنهار، وببقاع خصبة في داخلها تطلق عليها اسم الواحات. وفلسطين وسوريا تؤلفان احد هذه الأطراف الخصبة. لقد فتحها المسلمون المتوسعون من مكة، لألف وثلاثماية عام خلت، واصبحت القدس ثالثة الأماكن المقدسة في الاسلام. وتخلص السكان من قبضة البيزنطيين الضعيفة، وتهديدات الفرس، فاصبحت فلسطين في السياسة كما هي في الجغرافية، جزءاً مستقلاً من قوة العرب المتكونة. ومع استثناء حقبة التدخل الاوروبي أيام الحروب الصليبية، فإن فلسطين ما تزال عربية منذ سنة ٦٣٢. وذلكم لعمري زمان طويل !

ولم يدخل كل أهالي فلسطين في الاسلام، بل ظلت آلاف عديدة على ما كانت عليه من الدين المسيحي. وفلسطين لم تكن

يهودية منذ ايام الامبراطور الروماني Hadrian على الغالب، ومنذ أيام قسطنطين على الجزم . وحتى اليوم ، لا تزال فلسطين تحتفظ بمئة الف من مؤمنيها المسيحيين . هـذه هي الحقائق الكبرى التي يميل العالم اليوم ، بكثير من الكسل ، الى تناسيها، لأن عدد المسيحيين — من بين مجموع السكان البالغ مليوناً واحداً — كان يعدل عدد اليهود ، في نهاية الحرب العظمى . أما الكثرة الباقية فكانت مسلمة، متحدر أكثرها من مسيحيي البلاد القدماء ، ولكنهم دخلوا في الاسلام مع الفتوح العربية، فاصطبغ دمهم الكنعاني الأصيل اصطباغاً خفيفاً ، وذلـك في المدن على الغالب ، بالدم العربي . ولا شك في أن الثقافة والادارة تلوّنت سريعاً باللون العربي ، وأن العقل العربي طغى على البلاد زمان الخلفاء في مكة ، ودمشق ، وبغداد . وكان ذلك لصالح المدنيّة ، ما دامت اوروبا في ذلك الحين في مهـاوي القرون الوسطى ، ناسية مدنيتها ونظُمها القديمة . لقد تُرجمت كنوز اوروبا العقلية ، كنوز الماضي ، الى اللغة العربية ، ودُرست بهذه اللغة . وأرسطوطاليس مثلاً ، انما حُفظ لنا في اللسان العربي.

وكانت بحوث العرب وتجاربهم مثمرة في حقول الرياضة ، والطب ، والقانون ، والجغرافية ، والأدب ، والتاريخ . كانت

هناك مستشفيات ، ومدارس ، وجامعات ، ومؤسسات ، ومشاريع تجارية ، وحلقات بلاط زاهرة ، ومجالس فلاسفة ، وغيرها ، مما خلق في تلك العصور دنيا من العقل فيها زهو ، ولها احترام. إن الغرب ينسى ذلك كله ، ولكن الشرق يذكر. وعندما تستخدم اوروبا او اميركا لفظة « عربي » باستنكار واستهجان ، يقنط الذكاء من أن يأتي يوم يُفهَم فيه !

ولكن ماذا عن اليهودي ؟ أصبح اليهودي يتقلب في حال حسنة من النعمة ، كما كان المسيحي ايضاً ، في أيام الصالحين من ولاة الأمر المسلمين ، وفي قصورهم. فألّف اليهود ، بما لهم من خِصب عقلي عجيب ، في اللغتين العربية والعبرية ، وساعدوا على توسيع رقعة العلم والثقافة. إن مُضطهِدَ اليهودي هو عادة مسيحي ، لا مسلم ، الا في القليل النادر. فهناك امتزاج كبير بين اليهودي والمسلم ، وحتى مطلع الحرب العظمى ، لم يكن في العالم مكان لليهود اسلم ولا آمن من فلسطين المسلمة. فياعجباً كيف أن بعض اليهود قد غيروا هذا كله !

لقد عرفتُ فلسطين من سنة ١٩٠١ الى سنة ١٩٠٥ كذخيرةٍ من ذخائر العالم في السذاجة. كانت أرضاً مقدسة عند عشرات الألوف من السياح وعند آلافٍ أكثر وأكثر من

الحجاج الأتقياء الذين كانوا يولون وجوههم شطرها، من أتباع
أديان العالم الثلاثة. كنا نقدرها لأنها كانت تختلف عن سائر
بقاع الأرض. ولم يكن غير معقول عندنا أن تترك وحدها،
كبلد حافل بالمقدسات والآثار، وكمتحف للعادات الشعبية التي
تسير في طريق الزوال السريع من البلدان الموبوءة. ولم تكن
البلاد صغيرة فقط، بل إن جنائنها الخصبة القليلة بالنسبة الى
رمالها الجديبة كانت قد ذللت بحيث تكفي حاجات سكانها
الأصليين، وهم كنعانيون في الغالب، مع بعض الاختلاط
بالدم العربي. إنهم السكان الأصليون عينهم الذين عاشوا على
تلك الأرض لخمسة آلاف عام أو تزيد. والذين يمكننا أن ندعوهم
كنعانيين. وعلى أساس من هذه المادة الأصلية من السكان —
اذا جاز التعبير حدثت التغييرات، والغزوات، والفتوح
في خلال العصور. فالحثيون، والهكسوس، والآراميون،
والسريان، والعرب كلهم قد أثروا في السكان الأصليين. وفي
فترة ما بين السريان والعرب دخلت القبائل العبرانية إلى فلسطين.
ومن ذلك العبراني تحدر اليهودي القديم الذي يرتبط به اليهودي
الأوروبي برابط الثقافة على الأقل. وفي الوقت الذي غزا فيه
العبرانيون قسما من البلاد، غزت الحدود الغربية من فلسطين

قبائل غربية عرفت باسم « الفلسطينيين » Philistines . هذه القبائل استطاعت أن تخلع اسمها على البلاد كلها ، حتى هذا اليوم .

وكان الكنعانيون دائماً هم الباقين في الأرض ، يبنايزول المعتدون أو يضعف أثرهم . وحتى بعد الفتح العربي كان الشعب الجديد الناشيء من عملية المزج كنعانياً أكثر منه عربياً . ولا نحتاج الى أن ننظر إلى بعيد كي نرى إلى مافعله الصليبيون والأتراك لسكان البلاد وللبلاد نفسها . إن هؤلاء السكان اليوم ، خارج المدن ، هم في غالبهم فلاحون كما كانوا دائماً .

هؤلاء الفلاحون هم الذين سلبتهم أطماع الحرب العظمى ووحشيتها ، وداستهم ، ثم تركتهم يلهثون . إن التناحر الأوروبي والتوسع الأوروبي ؛ هما اللذان أحرقا المراعي ، والحقول ، والجنائن ، والقرى ، والوديان ، والفلاحين في فلسطين .

كان على فلسطين ان تحتمل ضربة هؤلاء البرابرة الاوروبيين . ومن ذلك الحين ، نُكث بالعهد ، وجزئت بلادُ العرب ، وأقيم الانتداب ، وأعلن تصريح بلفور ، واخيراً نُصبت الأسلاك الشائكة الممتدة على الحدود الشمالية من فلسطين ، المتصلة بسوريا . آهٍ من الصلب ! آهٍ من الحمق ! ثم ماذا ؟ لمَ لا نترك أهل

البلاد يأخذون بلادهم بأقل ما يمكننا من التدخل ؟ دعوهم يتعهدوا حنطتهم ، وزيتونهم ، وتينهم ، وعنبهم ، ومواشيهم ، وأطفالهم . دعوهم يتبعوا مذاهبهم ؛ ودعوا ، دول العالم تقنع بحق زيارة المقدسات في فلسطين .

إنَّ اوروبا واميركا تضربان اليوم ( تصنعان ) سيفَ الله من جديد ، وترهفان حده ، وتصوبانه شطر الغرب لا شطر الشرق .

إنَّ العربي صديقٌ شريف . لقد ازدُريت كلمتهُ وصداقته . إنه يستطيع ، مع غيره من الشعوب البيضاء ، أن يعلم اوروبا كيف تحسنُ الى الشعوب الملونة . إنه خيرُ وسيط بين الشرق والغرب .

لقد أصبح العربي يعي ثقافته وماضيه وعياً كاملا ، كما يعي الحدود الصحيحة لامبراطوريته المقبلة . وهو ديموقراطي بطبعه ، يقف بين اوروبا وآسيا موقفاً وسطاً ، لأنه اوروبي الى حدٍ بعيد في تحسساته ، ولأنه يفهم الشرق فهماً بعيداً ايضاً .

يظهر أن اولئك الذين قرأوا قليلا من التاريخ ، منذ أيام التوراة ، يعتقدون أن بلاد الشرق الأدنى خاليةٌ ، او هي كالخالية ، وأن سكانها لا يجدون كبير انزعاج في الانتقال إلى

مكان او بلد آخر لا يذكرونه على التعيين . إن أشخاصاً كهؤلاء يسألون عن الاسم الذي يطلق على سكان فلسطين ، وعندما يقال لهم انهم « فلسطينيون » لا يجدون معنى في ذلك الجواب . إن كلمة « سوري » و كلمة « مصري » تعنيان اكثر عندهم ، بل إن كلمة « تركي » لها مفهوم عندهم ايضاً .

إن في العادة التي سرت من حيث تسمية سكان الشرق الأدنى الناطقين بالعربية «عرباً» مهما كان جنسهم لتوافقاً كبيراً . فيجب أن يقل دهشنا حين نجد عراقياً ، او مصرياً ، او سوريا ، او فلسطينيا ، يتعاظم ويتباهى بكلمة « عربي » هذه .

إنّ العربي مثلنا نحن الغربيين له عبقريةٌ في التبشير وفي الغزو . فهو يذكر القرون الوسطى واتساع الحملات العربية ، واللسان العربي . وهو يعرف أنه يحسن حتى باوروبا أن تحذر التحرش ببلاد فتحها بقوّته ، وملكها منذ زمان .

إنّ الحقوق اليهودية في فلسطين قد سقطت بين سنة ١٣٦ وسنة ١٩٢٠ للميلاد ، وبكلمة ثانية ، منذ ابتداء التاريخ المسيحي على التقريب . إن ادعاءات اليهود للبلاد ترجع إذن إلى ما قبل التاريخ المسيحي . ولكنها عادتنا في أن ننسى العربي المسيحي ، وأن نفتري على العربي المسلم ...

في كتاب « اليهود والعرب في فلسطين »

Jews and Arabs in Palestine

الذي نشره Sereni و Askeri سنة ١٩٣٦ ( ص ١٧ ) يسخر المؤلف من الانكليز كنفعيين يستغلون اليهود . وفي مقدمة الكتاب ، ينظر المؤلف الى حرب مقبلة بين العرب واليهود في فلسطين ، ويرتاح بعض الارتياح الى امكانيات نجاح اليهود وذلك في أرض لم ينزلها أكثرهم الا حديثاً . فاذا استشهدنا بما قاله وايزمان ( ص ٤٣ ) نقع على الوهم الجميل القائل إن العرب سيعيشون بين اليهود في فلسطين . أما أن يعيش اليهود إلى جانب الأكثرية التي تبلغ ضعفها عدداً ( وحقوقاً ) فشيء لم يفكروا فيه . بهذه الطريقة انتقلت الى الرؤوس فكرةُ الوطن القومي اليهودي ، التي اختمرت فانقلبت الى فكرة دولة يهودية قومية .

إذا خان الغربُ الشرقي ، فإن الشرقي يكف عن أن يثق بأوروبا ، أو أن يجلس عند أقدامها يطلب العلم ، ويتملكه الخوف منها رغم اعجابه بها . ومع الأيام ستعرف شعوب الشرق الأدنى أن خلاصها انما يأتيها من عند انفسها ، فتنطوي على هذه الأنفس ، وتقلل من تطلعها الى الغرب . وتلك هي القصة ابداً : يجلس الشيخ

الغارق في تأملاته ، فيعلمُ اولاده المشغوفين بما في خارج حدودهم من مباهج ، أنَّ هناكَ قِيماً مرضيــة فيما هو مجاورٌ ومألوف. فيعترف الصبي ، آخرَ الأمر ، بأنَّ الصدق ما قال الشيخ. ويصبح الصبي وطنياً .

# الانكليز في فلسطين

# THE BRITISH IN PALESTINE

فصل من كتاب

## مشكلة فلسطين

## THE PROBLEM OF PALESTINE

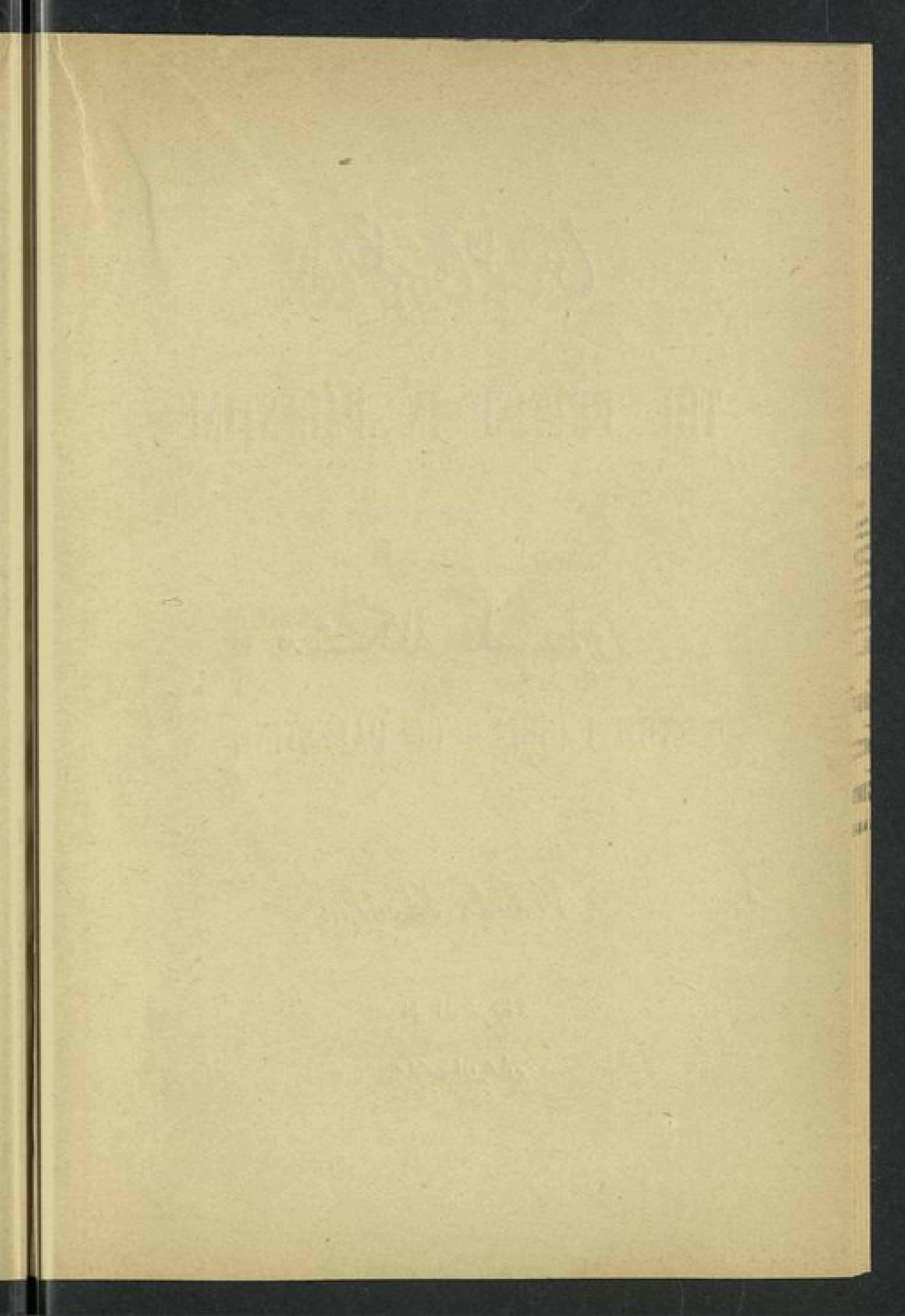

للكاتبة الانكليزية

*Maude Royden*



نقله الى العربية

**مكتب الايمان**



# الانكليز في فلسطين

للانكليز تاريخ عظيم كبناة للامبراطوريات ، فقد ساهموا في تغذية العلوم السياسية في العالم بواسطة مجموعة الدول المؤلفة من بريطانيا العظمى والممالك المستقلة مما لم يسبق له مثيل في التاريخ .

هنا عدد من الأمم الحرة تحيا مع بعضها في جامعة متحدة لا شأن للقوة بها ، ورغم ان العالم لم يصل بعد الى جامعة امم حقيقية ، فاننا نرى في مجموعة الدول الانكليزية (British Commonwealkh) نموذجاً وصورة لما يجب أن تكون عليه تلك الجامعة . فالحرب لم تعد ممكنة بين بريطانيا العظمى وممتلكاتها ( Dominions ) لأننا لا نشهر الحرب على احداها مهما فعلت ، فالاختلافات بيننا يجب ان تسوّى بالتسليم والرضا المشتركين أو أن تترك بدون تسوية .

هذا عمل عظيم . ولسوء الحظ لا تقف هذه الحقيقة بنفسها . فإن في الاستعمار الانكليزي بعض النواحي التي لم نظهر فيها

اهتماماً ولا عقلاً سلبياً ، وفخرنا بأعمالنا العظيمة لا يجب ان يعمينا عن الامور التي فشلنا فيها فشلاً ذريعاً . فنحن الملومون فقط لأننا ندّعي النبوغ السياسي والخبرة الواسعة . ومن المؤسف أن نفشل في السياسة فشل الساميين في الدين ، لأن الدين والسياسة هما الحقلان اللذان خلقنا لهما أكثر من أي شيء آخر.

وإن عملنا في فلسطين ليمثل فشلاً ذريعاً لم نعهده من قبل. فللمرة الثانية يكون موقع فلسطين الجغرافي شراً عليها .

والمصلحة الانكليزية في فلسطين عدا عن كونها دينية ، وتمثل شعور كل مسيحي نحو الأرض التي وُلد فيها مؤسس دينه ، هي مصلحة استعمارية نشأت عن اتصالنا بالهند والشرق الأقصى .

عندما حُفرت قناة السويس ، حصلنا على اكثرية الأسهم بالرغم من معارضة الحكومة القوية ، وذلك لنوءمن مواصلاتنا مع الهند . ولكن المراقبة المالية لم تكن كافية ، فهي جد قابلة لأن تلغى بالقوة الغاشمة في اثناء الحروب . ولذا كان من الضروري لنا أن نسيطر على مصر ، لأن القناة قد اقتُطعت من اراضيها ، ومن ثم كانت نيتنا ان نضع الحماية الانكليزية على مصر ، والجيوش الانكليزية لتحافظ على القناة . والنضوج

القومي في كل مكان زاد في حماسة الشعب المصري وتحفزه اكثر مما كان عليه في السابق ( فقد كان دائماً متحمساً تحت الحماية ) وأخيراً أجبرت بريطانيا العظمى على الاذعان ، والاعتراف بالاستقلال المصري ولا يزال مسموحاً لنا ، حسب معاهدة صداقة بيننا وبين المصريين ، أن نبقي جنوداً عند القناة . غير اننا من الطبيعي نشعر بأننا أقل أمناً على مراقبتنا الطريق الى الهند[1] .

نحن اليوم نملك : (ا) نسبة كبيرة من أسهم القناة[2] . (ب) ونملك فلسطين المنتدب عليها ، وعدن الى الجانب الجنوبي من البحر الأحمر ، والبحرين في الخليج الفارسي . (ج ) وضعية إدارية في شركة استخراج النفط في الموصل من العراق ، ومرفأ حيفا على شاطىء البحر المتوسط ، حيث يبدأ خط أنابيب البترول من الموصل .

هذا يعني أن لدينا مؤونتنا من البترول وطريقاً جوياً الى الهند يمر بغزة والبصرة . وبازدياد أهمية الجو حربياً وتجارياً

---

(١) فاستيلاء الايطاليين على الحبشة جعل حركة جنودنا في الهند واليها صعبة ، وجعل فلسطين أكثر أهمية لنا من اي زمن سابق .

(٢) تدير قناة السويس شركة خاصة وتملك الحكومة الانكليزية ٤٤ في المائة من اسهمها .

تتعاظم أهمية فلسطين في نظر الامبراطورية الانكليزية :

ولنراجع على ضوء هذه الحقائق تاريخ فلسطين في اثناء الحرب وبعدها :

من الضروري أن نتكلم عن تاريخ لا يشرفنا . ولكن لا بد لنا من أن نقدم عذراً له أهميته : فمن الحق أننا قطعنا على انفسنا وعوداً لم نحافظ عليها ، ولم نف بها ، بالرغم من أننا كان علينا أن ندرك ، في بعض الأحيان على الأقل، عجزنا عن هذه المحافظة . لأن هذه الوعود يناقض بعضها بعضا . ومن الحق ايضاً أنه لم يكن من الممكن التنبؤ بالظروف التي جعلت عهودنا هذه غير ملائمة ولا مناسبة . وقد يكون ما يعذرنا في هذه الحقيقة المحزنة الأكيدة أنه، في اثناء الحرب ، كانت كل الدول لا نحن فقط ، على اتم الاستعداد لبذل أحلى الوعود وأعذب الأماني لجلب المترددين المتذبذبين الى جهتها . ونحن فعلنا هذا ، كما كان يفعل الآخرون . ومع ذلك فليس هذا مبرراً ولا حجة وهو لا يكاد يكون عذراً ، ولكنه على الأقل ايضاح لما قد يعسر تفسيره بغير ذلك [1]

(١) يجد القراء التقارير عن هذه المدة ، لاول مرة بوضوح وكمال ، في ملحق كتاب جورج انطونيوس ( اليقظة العربية – The arab Awakening ) ولا

في بدء الحرب انضمت تركيا الى الجهة الالمانية النمسوية وأعلن السلطان الجهاد او الحرب المقدسة — بصفته الرئيس الاسمى (Titular head) للاسلام — ودعا المسلمين للحرب تحت راية الدولة التركية. ولم يشمل هذا الجهاد مسلمي سوريا[1] وجزيرة العرب فحسب، بل جميع سكان الهند المسلمين[2].

وكان الخطر علينا واضحاً عظيما، وأصبح من الضروري دحض دعوى تركيا بأنها منخرطة في حرب مقدسة، لتمنع مسلمي العالم من الوقوف في وجهنا كمجموعة واحدة.

وكان «كيتشنر» قد تنبأ بالخطر قبل الحرب، وكان على اتصال بالحسين، شريف مكة، بواسطة نجله الثاني عبدالله[3]. وفي شهر آب (اغسطس) بعد بدء الحرب، أوصى «ستورس» بأن يستعلم عما اذا كان العرب سينصرون الحلفاء فيما اذا وقفت تركيا بجانب المانيا، أو أنهم سيلبون نداء السلطان الى حرب مقدسة

---

غنى عن هذا الكتاب لكل من يود الاطلاع على حقيقة صلاتنا بالعرب في اثناء الحرب وبعدها. وقسم من هذا الفصل يكاد لا يعدو ان يكون تلخيصاً له.

(١) كانت كلمة «سوريا» تعني قبل الحرب كل ما هو مدعو الان سوريا والعراق (؟؟) ولبنان وشرق الاردن وفلسطين.

(٢) يبلغ مجموع سكان الهند نحو ٣٥٠٬٠٠٠٬٠٠٠ نسمه، ثلثهم على وجه التقريب مسلمون.

(٣) في فبراير عام ١٩١٤. راجع انطونيوس ص ١٢٧ في «اليقظة العربية»

يشترك فيها جميع المسلمين.

هنا يأتي سؤال كان موضع جدل. إذا كان سلطان تركيا هو الخليفة الحقيقي، فهل كان يعلن حرباً مقدسة حلفاؤه فيها مسيحيون؟ وهل يسمى هذا النوع من الحرب جهاداً؟ من الممكن أن لا يكون. وعلى كل حال كان من الحق لحاكم الحجاز الذي تقع فيه مكة والمدينة، المدينتان المقدستان، أن يبدي رأيا في الموضوع يسمعه المسلمون ويعملون به. وكان على الحسين أن يحدد موقفه على ضوء موقف العالم العربي عموماً من حكامه الأتراك.

وكانت المجازر المريعة التي شوهت سمعة الحكومة التركية في نظر الانكليز من وقت الى آخر، قد تجسمت ولم تقف عند حد تشويه السمعة، بل تعدته الى الحكم على المسئولين عنها بأشباه الوحوش. وكان «عبد الله اللعين» اللقب الشائع لعبد العزيز، [1] ناله عن جدارة. فالآثام والشرور التي كان مسؤولا عنها كانت موجهة ضد المسيحيين، وذلك لأسباب دينية في الظاهر. ولم تكن خطرت على المسلمين الذين اعتنقوا دين

(١) نعتقد ان الكاتبة خلطت هنا بين عبدالعزيز وعبدالحميد، فاللقب هو للاخير

حكامهم الاتراك مع كونهم عرباً .

وضعف « رجل اوروبا المريض »[1] جعل حكمه في سوريا وآسيا الصغرى غير ذي تأثير . فالقسطنطينية كانت بعيدة جداً والاتراك لم يحتلوا يوماً البلدان العربية، بل حكموها، او بالاحرى اساؤوا حكمها ، وادارتها . وعلى الجملة فقد تمتع العرب فى كثير من بلدانهم وفي كثير من الأحيان بحظ عظيم من هذه الحرية الناتجة عن الحكم المتراخي غير الموطد الاركان ، ولذا لم يكن من الممكن الاعتماد عليهم اعتماداً كلياً للوقوف وقفة واحدة في وجه الاتراك او لاظهار الحماسة والاندفاع المنتظرين من أمة مضطهدة مستعبدة .

وكانت الحكومة التركية ، علاوة على ضعفها ، حكومة فاسدة ايضاً . فحكم عبد الحميد كان مبنياً على أساس التجسس والظلم . ونشأ نظام أصبح فيه جواسيس السلطان لغاياته السياسية « حكومة اعيان » - Oligarchy - مؤلفة من الأنذال المفسدين الذين لم يسلم منهم أحد مهما كان رفيع الشأن، بريئاً ، إلا بالرشوة المؤقتة . وفرض نظام مراقبة المطبوعات ، وزاد قساوة وفظاعة يوماً عن يوم حتى طغى على كل حركة صحافية ادبية فأماتها .

---

(١) لقب تركيا قبل الحرب وفي اثنائها

واصبحت دور العدل آلة خاضعة لسيطرة سكان القصر ، وتنفيذ الأحكام التي يراها هؤلاء في صالحهم ضد الأبرياء المظلومين . وكانت الأحكام بالابعاد والنفي والشنق وغيرها تصدر على الظن والشبهة . واما الحالة المادية فقد وصلت الى درجة الافلاس فالاصلاحات التي اقترحها عبد الحميد دلت على عقله المظلم وجهله البالغ ، فاستدان الأموال من الرأسماليين الأجانب لقاء رهنه لديهم موارد الدولة الرئيسية .وخصص قسماً من هـذه الأموال لاعادة تنظيم جيشه، منفقاً كل الانفاق على دار العلوم العسكرية والتدريب العسكري بينما بقي التعليم والتهذيب الحقيقيـان مهملين متأخرين . واخيراً حاول عبد الحميـد أن يدعم مركزه دولياً ، فاستعان بقوة الدين في الحقل السياسي [1]

ومن المنتظر أن يؤدي حكم كهذا الى الفقر المدقع يستولي على طبقات الشعب جميعاً . وقد كان ؛ فسقط مستوى العيش بين العرب في سوريا سقوطاً ذريعاً يكاد لا يصدق ، بعـد أن قضى عجزهم عن تعليم الشعب وتهذيبه على انتـاجهم العقلي ، وذلك بداعي الفقر الذى سببته لهم النفقات العسكرية الباهظة .

---

(١) اليقظة العربية ص ٦٧ – ٦٨

وليس ثمة أخطر من الخمول المسبب عن الفقر الذي يُبقي ضحاياه تحت المستوى اللائق بحيويتهم ، والذي يجبرهم على العمل كالعبيد ، ويسخر القسم الأكبر من إنتاجهم في سبيل غايات شعب آخر . هذه الأحوال والأوضاع المفروضة على العرب من قبل الأتراك قرناً بعد قرن لا يجب أن تغفل عند تقدير إمكانياتهم كأمة في المستقبل .

وزيادة على الفقر والجهل ، كان الشباب في سوريا مجبرين على الانخراط في سلك الجندية التركية : وكانت الفرق العربية تهيأ للقتال ضد فرق عربية اخرى — عرب سوريا عرب اليمن — ولم يكن هناك طريقة أحسن من هذه لاثارة الشعور القومي بين شعب هو قبلي الحس أكثر منه قومياً بالطبيعة . وقد زاد تطورهم القومي يوماً عن يوم وتفاقم كرههم للترك ، حتى أن « انطونيوس » ضمن كتابه تعليق كاتب افرنسي على انتشار روح الحماسة ( لاحياء البلاد ) و ( تخلصها من كل صبغة طائفية ) . وقد وقفت على شعور الكره للأتراك حيثما حللت وعلى محاولة التخلص من سلاسل العبودية . هذه المحاولة التي بدأت بالتكون والظهور . ولمستُ حركة عربية النشأة تتراءى

في الأفق وعنصراً مظلوماً مدوساً سيطالب بحقه في الحياة[1]

كان هذا في عام ١٧٨٢ ، ولم يحدث شيء يساعد على انتشار هذه الروح وتهذيبها . فقد نهض العرب اليوم ، لأول مرة في تاريخهم ، بدافع رئيسي غير ديني ، ولذا لا يصح تسمية هذا النهوض نوعاً من المطالبة بالدم والأخذ بالثأر . كانت نهضة قومية ترمي الى تحرير العرب جميعاً ووحدتهم ، وكانت ثمارها كما رأينا ، نهضة اللغة العربية الى درجة التقديس ، رغبة في إعادة مجد المدنية العربية القديمة ، وقد كانت نهضة أدبية سياسية — كما هي القومية الصحيحة دائماً — بل أدبية قبل أن تكون سياسية . تلك يقظة الروح عند الشعب .

كان هناك عامل آخر ديني في الثورة ، أعني مسألة الخلافة أو قيادة العالم الاسلامي . فقد طالب بهذا الحق عائلات عدة . وأسست الخلافة في اماكن مختلفة مكة ودمشق وبغداد بل ومصر . ومنذ نشأة الأتراك العثمانيين ، نُقلت الى القسطنطينية ومع ذلك فقد بقي شريف مكة — مهد الرسول نفسه — متمسكاً بها . ومن الملاحظ أن « المناداة بخلافة عربية » للاسلام كانت من شروط المفاوضات الاولى بين الشريف حسين مع

(١) اليقظة العربية ص ٩٠

السر هنري مكماهون ، والتي قبلها هذا الأخير نفسه [1] . والحق أن الحوادث الـتي تلي تظهر أن الطموح الديني كان له نصيب ضئيل في يقظة العرب ، وعرضها هنا إنما يذكرنا كيف أن التعطش الى الاستقلال والتطور القوميين حجب من قيمتهـا وقلل من أهميتها .

وكان موقف الحسين حرجاً . فعلى أساس من تاريخ العرب القديم لم يكن الحسين واثقاً من انهم يجيبون النداء الى وحدة اسلامية وحرب مقدسة بدلا من وحدة عربية ، ومحـالفة مع الدول المسيحية . كما أنه لم يكن واثقاً من أنهم يعملون متحدين فيما إذا انتهزوا الفرصة ليخلصوا أنفسهم من الأتراك . هل كان أمل الوحدة القومية والاستقلال قوياً كافياً ليوحدهم ؟ هل ينسون عادة الأخذ بالثأر والغارة ويتقبلون النظام الذي يجعلهم قوة مساعدة للحلفاء ؟ في الحقيقة انهم لم يفعلوا ذلـك لدهور خلتْ ، وإمبراطوريتهم لم تُبنَ على أساس سياسي بل على تحمس ديني ، فهل يمكنهم أن يعيدوا اليوم ما فعلوه بالأمس ؟

---

(١) تعلن الآن مرة اخرى ان حكومة بريطانيا العظمى ترحب بارجاع الخلافة الى عربي صريح متحدر من الاسره النبوية المباركة . «انطونيوس ، اليقظة العربية ، ص ٢١٦»

لم يكن ابناء الشريف نفسه على يقين من هذا . فعبد الله، الابن الثاني الذي قام بالمفاوضة بالنيابة عن والده مع كيتشنر وستورز ، واخيراً مع السر هنري مكماهون ، اعتقد بامكانية الأمر .وأما فيصل ، الابن الثالث، فكان في شك، وفضّل أن يقف الى جانب تركيا في ساعة تجربتها ،ويجوز تقديرها السامي عندما تتقدم لعقد الصلح . والحسين نفسه [1] الذي كانت تنظر اليه الحكومة التركية كحاكم مستقل ،وكمدير قدير للشؤون في الحجاز ، كان يميل الى الأخذ برأي عبدالله . وربما كان للحسد الذي يكنه الحسين لابنه الثالث ( فيصل ) — على ما يرى لورنس [2] — أثر في هذا الميل . وعلى كل حال فقد صمم على أن يتابع على الأقل مفاوضاته مع كيتشنر وأن يبحث مجدداً عن إمكانية مساعدة العرب مجتمعين .

وفي عام ١٩١٥ كان الحسين على اتصال بأهم الجمعيات الثورية : الفتاة ، والعهد . وأرسل فيصل الى دمشق ليجس نبضها فوجد أنها تميل للثورة ضد الأتراك ، والى التحالف مع

---

(١) اليقظة العربية ص ١٣١

(٢) راجع رسائل ت. أ. لورنس ص ٦٧١ من « الحسين الذي حسد فيصل »
( Hussein who hated Faisal )

الانكليز اكثر مما كان ينتظر . وأعد بروتوكولا للمفاوضة مع هؤلاء على أساس استقلال العرب وتحالفهم مع بريطانيا [1]

واستمرت الحرب . ولاقى الحلفاء خسراناً عظيماً، وانكساراً مريعاً في الدردنيل نتيجة مساعدة الألمان للترك . وكانت اللحظة الملائمة لتقدم العرب وتدخلهم ، فبدأت مراسلات مكماهون الشهيرة .

افتتح الحسين المفاوضات ، على أثر تشجيع ابنه فيصل الذي انقلب الى اعتناق النظرية القائلة بإمكانية اتحاد العرب ، وطلب اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية كما عين حدودها . فأجاب السر مكماهون بالغموض الذي كثيراً ما يُظن خطأً أنه عين السياسة ، واستعمل كلمات « كاستقلال البلدان وسكانها » ، ولكنه كان يعتقد أن « التخوم والحدود » يمكن بحثها فيما بعد . [2] فاجاب الحسين بحدة وقوة أن مقترحات العرب فيما يختص بهذه النقاط باختصار « ضرورية حيوياً واقتصادياً » وهي « زبدة وجودنا وجوهره سواء من الوجهة المادية او الروحية او المعنوية » وأن موقف العرب انفسهم يعتمد على قبول التخوم

---

(١) اليقظة العربية ص ١٥٨

(٢) راجع اليقظة العربية ص ٤١٥ وما يليها .

المقترحة او رفضها فقط »[1]

والعامل القاطع في موقف الحسين وعبدالله وفيصل ، وفي الحقيقة في موقف كل القواد العرب، كان يعتمد على الاستقلال والوحدة القوميين . واذا كان هناك أي اختلاف بين الحسين وفيصل فعلى هذه النقطة فقط : إن الحسين وعبدالله كانا مقتنعين باخلاص الانكليز وصدقهم ، وغدر الشباب الاتراك الذين انتظر العرب منهم أشياء كثيرة وعرضوا عليهم صداقتهم ، بينما مال فيصل وسائر قواد الجمعيات العربية الثورية ( الفتاة ، والعهد ) الى الاطمئنان لضعف الأتراك ، والى تقديرهم المساعدة العربية في ساعة المحنة والحاجة . وكانوا في شك تام من بواعث القوى الغربية وغاياتها ، وخصوصاً فرنسا وبريطانيا العظمى اللتين ظهرتا اليوم كحليفتين . وفوق ذلك فالأتراك كانوا مسلمين بخلاف الحلفاء . وقد ظهر شعور العرب في دمشق واضحاً في قرار اصدرته جمعية الفتاة في هذا الوقت :

«إن مصير المقاطعات العربية من الامبراطورية العثمانية مهدد بالخطر بمناسبة دخول تركيا الحرب. فيجب أن نبذل أقصى ما

---

(١) كانت هذه الحدود تضم كل الجزيرة العربية ، العراق ، فلسطين ، شرق الاردن مع سوريا . راجع « اليقظة العربية ص ٢١٧ وما يليها .

يمكننا من جهد في سبيل الحصول على استقلالها وحريتها . وقد عقدت الجمعية النية على أن تعمل بجانب تركيا لتقاوم النفوذ الأجنبي مهما كان نوعه وشكله فيما اذا ذرت المقاصد الاوروبية قرنها[1].

وبناء على هذا الشعور العربي العام لم يسمح الحسين بأي غموض من جانب مكماهون يمر دون ان يلاحظه ويدقق فيه. واصراره هذا انتج مقترحات أخرى محدده . فالسر مكماهون قال كتابياً : إن بريطانيا العظمى مستعدة للاعتراف باستقلال العرب وتأييده في جميع المناطق الواقعة ضمن الحدود المشار اليها من قبل شريف مكة . « ما عدا بعض المقاطعات الواقعة غربي مقاطعات دمشق وحمص وحماه وحلب ، والتي لم تكن عربية صريحة ، وكان من الواجب عدم ضمها الى بقية المناطق . وذكر مكماهون الحسين ايضاً أن الانكليز كانوا قد عقدوا معاهدات مع رؤساء عرب آخرين ، وأن هذه المعاهدات يجب أن تحفظ وأن القبول العام بالحدود الموضوعة من قبله يكون بالنسبة الى تلك المناطق التي مكنت بريطانيا نفوذها فيها « بدون أن يضر ذلك بمصالح حليفتها فرنسا .»

---

(١) راجع انطونيوس ـ اليقظة العربية ص ١٥٣

نستطيع أن نرى أنه لما كانت الولايات الواقعة « غربي دمشق وحماه وحمص وحلب » قد استثنيت من الاتفاقية ، فان دمشق نفسها والمدن الأخرى يجب أن تعتبر داخلة فيها . ومما يهم في دراسة فلسطين أن الفرنسيين لم يطالبوا بهذا البلد . ولذا لم يكن من الممكن حالياً ولا مستقبلا ضمها الى المناطق التي لم يكن للانكليز حرية العمل فيها « بدون ان يضر هذا بمصالح حليفتهم فرنسا . » ومهما يكن فقد ظهر بعد ذلك الادعاء العجيب بأن فلسطين كانت مستثناة من الحدود الموضوعة من قبل الحسين لأنها واقعة غربي بغداد والمدن الاخرى . ومن المعقول ايضا الادعاء بأن « منطقة غربي ادنبارج ونيو كاسل » تحوي وتضم ويفونشير و كورنوول ؛ وبكل تأكيد تظهر كورنوول الى غرب ادنبارج إذا رُسم خط من الأخيرة الى خط الاستواء ، وينطبق القول نفسه على ساحل اسبانيا الغربي . فهل هذا منطقي ومعقول يصادف الغرض ؟ إن هذه المقاطعات لا يمكن أن تحدد بأنها : « غربي ادنبارج ولا نيو كاسل » ، فهي بعيدة جداً الى الجنوب الغربي . و كذا فلسطين : فهي الى الجنوب الغربي لا غربي دمشق وحمص وحماه وحلب ، والادعاء بأن هذه البلاد

ـ فلسطين ـ كانت مضمومة في هذا التعريف ماهو إلا سخرية حتى من أقل الناس علماً بالخرائط الجغرافية. والحسين كان قد طالب فوق ذلك أن تكون الحدود للدولة العربية المقصودة «البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط الى مرسين غرباً» وقد رفضت مرسين كما رأينا لأنها لم تكن «عربية صريحة» ووافق الحسين على هذا الرفض.

وقد طلب مكماهون في رسالته الثانية استثناء هذه المساحات الواقعة «غربي دمشق» فرفض الحسين طلبه. ولكن استثناء فلسطين لم يُذكر ابداً، كما أنه لم يُعترض مطلقاً على كون حدود الممتلكات العربية «الى غرب البحر المتوسط» فإذا اعترف بهذه الحدود الى غرب البحر المتوسط فإن هذا يعني فقط اشتمالها فلسطين لأن استثناءها يترك العرب بدون ميناء بحري غربي. ومهما يكن فإنه لم يخطر في بال أحد أن تعد فلسطين واقعة «غربي دمشق» بينما هي الى الجنوب الغربي منها.

وقد قبل الحسين رسالة مكماهون الثانيـة، بالرغم من اعتراضه على بعض الأقسام الواردة فيها. فقد احتوت تأكيدات بريطانيا العظمى بالوقوف بجانب قضية الاستقلال العربي، بينما تترك الأمور الأخرى لتسويات مؤجلة. وجـدد مكماهون

تحذيره أن بريطانيا العظمى يجب أن تقف بجانب فرنسا . وتم الاتفاق . ومن المعقول أن لا يفكر احد أن فلسطين لم تكن (عربية صريحة) أو أن الفرنسيين كانوا يطالبون بها لأنفسهم. واعتقد الحسين تماماً بنزاهة الانكليز وطهارتهم. وفوق الجميع بحسن طوية اللورد كيتشنر واستقامته .

وكانت الثورة ضد الأتراك قد بدأت واقتنع فيصل وجاراه في اقتناعه الجمعيات الثورية؛ ومن هنا قُدِّر لابن الحسين الثالث أن يتزعم الحركة ،وإذا أردنا أن نصدق ما رواه لورنس، فقد قُدر له أن يثير حسد والده الشريف حسين نفسه . وكتب الكولونيل لورنس في كتابه « أعمدة الحكمة السبع » — The Seven Pillars of Wisdem — يقول : إن علياً ابن الحسين الأكبر كان شاباً لطيفاً منصفاً ، ذا شخصية ضعيفة ، عصبي المزاج : ضعيف البنية . وضعفه الجسمي — فقد كان مسلولاً — جعله عرضة لنوبات عاطفية سريعة ، مسبوقة ومتبوعة بأحوال عنادية غير ثابتة . يحب المطالعة واقتناء الكتب ، عالماً بالقانون ومتديناً الى حدود التعصب . وكان شاعراً بنبل أصله ومحتده شعوراً قضى على الطموح عنده . إلا أن طبيعته كانت طيبة خالصة مما جعله يحسن الظن بمن حوله

وبمصالحهم الشخصية . و كنتيجة لهذا أصبح فريسة لرفاقه الملتفين حوله . وغير صالح لأن يكون قائداً عظيما ؛ مع أن نقاء نفسه وحسن سلوكه أجبرا كل من عرفه واحتك به على حبه . ولو قدر الا يكون فيصل نبي هذه الحركة ، لما كانت الثورة تخسر كثيراً أو عليّ على رأسها .[1] ويقول لورنس ايضاً إن عبدالله يصلح للقيادة في وقت السلم أكثر منه في وقت الثورة . وكان زيد « خجلا ، أبيض ، أمرد ، له من العمر تسع عشرة سنة ، هادئاً ، طلق اللسان ، غير متحمس للثورة حتى أنه كان في ذلك كله أقل حماسة من عبدالله ، القائد الذي كنت أرجو .[2]

إذن فان فيصل كان محط آمال لورنس فقد اطمأن عندما رآه الى أن الثورة قد وجدت قائدها . اسمعه يقول في مقدمته : « قال ( تافاس ) شيئاً لعبد كان واقفاً هناك وبيده سيف مفضض القبضة فقادني الى دار داخلية رأيت في طرفها الآخر ، قرب باب أسود ، رجلا أبيض ينتظرني بفارغ الصبر . لقد شعرت لأول وهلة أنه الرجل الذي أتيت الجزيرة العربية خصيصاً لأجتمع به والذي سيقود الثورة العربية الى النصر الكامل ؛ ورأيت فيصل

(١) الفصل العاشر ص ٧٦ - ٧٧

(٢) « اعمدة الحكمة السبع » الفصل العاشر ص ٧٧

رجلاً طويلاً جداً كالعمود جد نحيل في ثوبه الحريري الأبيض الطويل ؛ وكانت يداه ملقاتين على خنجره . »[1]

وأصبح فيصل قائد الثورة . ولا يمكننا إلا أن نشعر أنه في آخر الأمر لم يظهر المواهب المطلوبة من قائد في مركزه ، على حين لا أحد يشك يوماً في أنه أبدى شجاعة واخلاصاً وتفانياً للقضية لا تحد . إلا أن عدم مهارته وحكمته في معاملته مع السياسيين الغربيين تجلت فيما بعد . واللوم في الورطة التي نتجت يقع على اولئك السياسيين . إنما كان باستطاعة رجل أقوى وأعقل من فيصل أن يعمل لمقاصده أكثر مما عمل بالرغم من كل حيلهم

ومهما يكن فقد كان فيصل رجل الساعة . ومعاملة الأتراك الوحشية سببت عودته الى حظيرة والده وكان جمال باشا حاكم دمشق يأمل في الاحتفاظ بإخلاص العرب وطاعتهم . فلما تقاعس العرب عن نصرة الأتراك وعدم طاعتهم لهم جن جنونه وقام بالأعمال الوحشية المعهودة . وإلا كان من الصعب جداً تفسير هذه الوحشية . وبالرغم من استعطاف فيصل الذي دُعي الى دمشق من قبل جمال نفسه ، ورسائل الحسين المستعجلة فقد نفى الى اماكن بعيدة جداً مئات من الرجال وشنق لا أقل من

(١) اعمدة الحكمة السبع . الفصل الثالث عشر ص ٩٠ – ٩١

واحد وعشرين زعيما . وكثير من هؤلاء كانوا من رفاق فيصل نفسه . فغلى الدم في عروق فيصل وأصبح من المستحيل أن يعود الى الوثوق بالأتراك ومناصرتهم، فعدل عن خطته الأولى عدولاً نهائياً . وقد قيل إنه انتصب واقفاً عندما جاءه الخبر «كمن جُنّ فجأة ورمى بكوفيته وعقاله الى الأرض وصاح بمرارة : «لقد أصبح الموت حراً أيها العرب!» [1] وكانت صيحة حفزت العرب الى حمل السلاح مضحين بأنفسهم ليثأروا لدم إخوانهم الشهداء!

في ذلك الوقت وصل الكولونل لورنس الى جدة ، في «زيارة للاستقصاء» وبقي هناك ، كما يعرف الكل ، ليثير بأعماله فضول العالم . [2] وقد أدرك قوة القومية العربية وعمقها وأهميتها للحلفاء في مقاومة محاولة الأتراك جعل الحرب «جهاداً» يشترك فيه المسلمون جميعاً الى الجانب الألماني . كما أنه أدرك أيضاً أميز طريقة يمكن أن تُستخدم بها القوى العربية ، غير المنظمة ، لمصلحة الحلفاء . وفوق ذلك فقد كان قادراً على اكتساب صداقة فيصل الشخصية وثقة العرب أنفسهم وبمساعدته بقيت الحرب في الشرق الأدنى واسطة قوية شغلت الجيش التركي وعدداً من

(١) انطونيوس - اليقظة العربية ص ١٩١

(٢) انطونيوس - اليقظة العربية - ص ٣١١

الضباط والخبراء الألمان .

وفي المقام الأول كان يجب أن تؤكد سلامة الجزيرة العربية . فأخذت العقبة ، المدينة الصغيرة على رأس البحر الأحمر ، يوم ٦ تموز ١٩١٦ ، وأصبحت مركزاً مهماً للمحطات اللاسلكية ، ومحطة للتموين والطيران . وبعدها بدأ التقدم نحو فلسطين فتحرك اللنبي نحو الشمال في نهاية تشرين الاول ( اكتوبر ) بينما بدأ لورنس حملته المشهورة على الخطوط الحديدية . فنسف القطارات التي كانت تنقل الجنود والذخائر للقوى التركية ، وجردت الأتراك من اصدقائهم العرب ، تلك الدعاية المنظمة من قبل الحلفاء « وطوال تقدم اللنبي على القدس في خريف ١٩١٧ ترك صفوف الأتراك من العرب جماعات كثيرة وانتقل قليل منهم الى الخطوط الانكليزية وعرضوا أنفسهم طائعين ، وتوجه آخرون الى العقبة ليتصلوا بالجيش العربي ، واختفى القسم الأكبر في داخل البلاد . وبينما كان الانكليز يتقدمون نحو القدس وجدوا أنفسهم يحاربون في بلد صديق ، بينما وجد الأتراك الذين كانوا يدافعون عن بلادهم الخاصة يقاتلون في وسط شعب مخاصم »[1]

وقد قيل رداً على مطالبة الفلسطينيين بالاستقلال المضمون

(١) اليقظة العربية ـ انطونيوس ـ ص ٢٢٧

للشعوب العربية جميعاً . إنهم لم يساهموا في مساعدة الانكليز؛ مع أنهم لم يكونوا يقدرون على عمل أعظم من استقبالهم وفتح صدورهم لهم . ولكن السيد انطونيوس يقول : « إن الرجال والضباط العرب في الجيش التركي قطعوا الحدود وتوصلوا الى الخطوط الانكليزية وأعطوا قيادة جيوشها معلومات كانت لها قيمتها الكبرى عند وضع خطط الهجوم على الأعداء . وقد قُوبل انتصارهم في القدس بفرح زائد واستقبال لم يسبقه مثيل قام به شعبها المنهوكة قواه نفياً وتقتيلا وجوعاً . ومع هذا فقد طغت الحماسة المحلية على قلة عدد الرجال الصالحين للخدمة ، عندما أسس الانكليز مكتباً لتجنيد المتطوعين في جيش فيصل . فقد أسس امين الحسيني [1] ، احد أفراد العائلات العربية المترعمة حركة للتجنيد ، ولعب دوراً مهماً في تنظيم القوى ، وبلغ عدد المجندين نحو ألفي رجل . ومع حالة البلاد المادية إثر الحرب فقد كان هذا العدد بازدياد دائم وارتفاع مستمر . » [2]

وكانت غزة وحبرون ويافا وبيت لحم قد سقطت ، ودخل الجنرال اللنبي القدس يوم ٩ دسمبر ١٩١٧

(١) سماحة مفتي فلسطين الحالي الحاج امين الحسيني .

(٢) اليقظة العربية ص ٢٢٩ و ٢٣٠

وعقب ذلك مدة أشهر قلائل هيئت فيها أسباب الاستعداد للتقدم نحو سوريا . وفي هـذا الوقت ظهرت أهمية التعاون العربي أكثر من أي وقت سابق ، وتحسنت القوى العربيـة نظاماً وعدة . وعمل فيصل باخلاص تام بجانب الجنرال اللنبي . ويقول لورنس « إن الجيش العربي تطور من جماعات بدوية الى فرق عسكرية منظمة كاملة العدة ، وقبض على خمسة وثلاثين ألف تركي ، وقتل عدداً أكبر من هذا بكثير ، واستولى على مئة وخمسين مدفعاً وعلى مئة الف ميل مربـع من الأراضي العثمانية . وكانت هذه خدمة جلى لنا ، ووجدنا اننا مدينون للعرب بمكافأة تماثلها ، ولفيصل بمثليها لاخلاصه في تنظيم القوى العربية حيثما توجه اللنبي وحل »[٢]

وهناك دليل آخر على اهمية المساعدة العربيـة للجيش الانكليزي ، هي شهادة الجنرال اللنبي نفسه التي أتى على ذكرها اللورد لويد جورج في مؤتمر السلم عام ١٩١٩ إذ قال : لم تكن القضية السورية قضية سورية وانما كانت قضية انكلترا نفسها.

فمع أن انكلترا جندت ما يقارب التسعمائة الف الى المليون جندي ضد تركيا فقد كانت مساعدة العرب أساسية لها ، وهذه

(٢) رسائل لورنس « Letters of Lawrence » ص ٣١٢

نقطة استطاع الجنرال اللنبي أن يتكلم عليها :

قال :

ان مساعدة العرب كانت فعّالة لا تقدر بثمن

وتابع المستر لويد جورج قائلاً :

إن الملك حسين كان قد حشد كل قواه لتأييد انكلترا في ساحة القتال ، وهذا ما ساعدنا عملياً على الفوز في النهاية .[1]

وكانت نتيجة هجوم خريف سنة ١٩١٧ عظيمة . فان اعمال الأتراك الضئيلة وانهزامهم المتوالي فتح الطريق في وجه الغزاة ودخل اللنبي دمشق يوم ٣ تشرين الاول ( ١ كتوبر ) سنة ١٩١٧ من جهة ، بينما دخلها فيصل من جهة اخرى . وكان هذا الدخول بمثابة حلم يتحقق فدمشق قد سقطت ، والأتراك قد رحلوا !!

ويصف لورنس في كتابه « أعمدة الحكمة السبع »[2] اجتماعه بفيصل عندما نقل هذا الحلم الى حيز التحقيق . قال فيصل :

— كيف رأيت مكانك هنا في وادي صفرا ؟

— إنه حسن ، ولكنه بعيد عن دمشق .

وقعت هذه الكلمة الأخيرة عليهما كالسيف وارتجفا وجد

(١) انطونيوس : اليقظة العربية ص ٣١٠

(٢) ص ٩١

كل من الحاضرين في مكانه وحبس نفسه دقيقة وربما كان البعض يحلمون بفوز بعيد ....

وجاء هذا « الفوز البعيد » فقد سقطت سوريا في ٣٠ اكتوبر عام ١٩١٨ ووقع الأتراك على هدنة « مُدرس ».

وليس هناك من شك في أن الفضل في نجاح حملة الجنرال اللنبي لا يعود فقط الى القوى الانكليزية، ولا الى نبوغ ذلك الجندي العظيم، بل الى العرب الذين حاربوا في صفوفه .

وقد عانى العالم العربي الحضري على وجه الاجمال آلاماً كبيرة في سعيه وراء الحرية . وهذه رسالة شاهد اميركي استشهد بها المستر انطونيوس :

« في اثناء رحلة يومين في لبنان، مع رئيس جمعية الصليب الأحمر الاميركية في بيروت، قمنا بزيارة عدة قرى بيتاً بيتاً . فأوحى منظر الفقر المعدم المتجلي فيها الألم في نفوسنا . ولم نر الا عائلات مرتمية في أراضي الأكواخ العادية البائسة، وسمعنا التأوهات والأنات من مسافات بعيدة. وقد باعت هذه العائلات كل قطعة من مفروشات بيوتها لتشتري بثمنها خبزاً. وفي أحيان كثيرة، كانت تبيع آجرّ السقوف لنفس الغرض . بينما بقيت مئات البيوت التي مات اصحابها خالية، تتقدم نحو الخراب

بخطى سريعة »[1]

ويتابع المستر انطونيوس فيقول :

«كُتب هذا في تموز عام ١٩١٧ . وساءت الامور بين هذا التاريخ واحتلال بيروت بعد خمسة عشر شهراً . فليس من شك في ان ثلاثمائة الف نسمة ماتوا جوعاً في سوريا . بل إن هذا العدد قد يرتفع الى الثلاثمائة والخمسين الفاً ، بينما حُبس ثلاثة آلاف شخص ونفوا ومات كثير منهم لسوء المعاملة . وإذا قدرنا الخسائر الناتجة عن الخدمة العسكرية ، فان حصة سوريا لا تقل عن نصف مليون نسمة ، من مجموع سكانها الذين لا يبلغون اربعة ملايين .[2]

وقد يُظن أن مساعدة العرب الحقيقية وتألمهم في سبيلنا كان معناها انجاز الوعود التي قطعناها على انفسنا في وقت حاجتنا . لنلخص نتيجة هذه المساعدة وهذا الألم :

لقد كان موقفنا حرجاً جداً وقت تأخرنا في الدردنيل . فقد كانت تركيا قد اعلنت الحرب المقدسة علينا ، ودعا السلطان جميع مسلمي العالم للاشتراك فيها تحت لواء « الجهاد » . وكان

---

(١) اليقظة العربية ص ٢٦١

(٢) » » » ٢

هذا النداء قابلا لإحداث اسوإ النتائج : انقلاب الثلث المسلم من سكان الهند ، وجميع سكان البلدان العربية: الجزيرة العربية وفلسطين وسوريا والعراق ومصر ، التي يجعل منها مركزها عثرة كأداء بيننا وبين الهند ويضع في أيديهم السيطرة على قناة السويس .

وحالفنا العرب ضد أبناء دينهم الاتراك ، ورأينا نتيجة هذا التحالف الطيبة . فلماذا فعل العرب هذا ؟ هنا جواب واحد منهم حارب في صفوفهم :

« لم يثر العرب على الأتراك في اثناء الحرب لأن الحكومة التركية كانت عاطلة جداً . بل لأنهم ارادوا الاستقلال . إنهم لم يعرضوا حياتهم للخطر ليخلصوا من سادة ويقعوا في أيدي آخرين ، ولا ليصبحوا رعايا انكليزيين او افرنسيين ؛ بل لينالوا الحرية [1] ثم يقول « انا لا أعتقد بأي انتعاش ديني في البلدان الغربية الاسلامية . فشغفهم اليوم بقوميتهم قضى على نزعتهم المتعصبة للمذاهب . ومن جهة اخرى فانه ليس من شك في قوة هذه القومية وأثرها البالغ . فانها بمدة اربع عشرة سنة اعادت تشكيل خارطة الشرق الأوسط السياسية ، ولا يزال

(١) رسائل لورنس ص ٣٠٧

اوج مجدها بعيداً .»[1]

لم يكن لورنس دليلا معصوماً في الشؤون العربية ولكني لم أجد حتى الآن عربياً يختلف معه في هذا . لقد وقف العرب بجانبنا في سبيل استقلالهم . وفي سبيل هذا الاستقلال حاربوا وماتوا . فأخذنا عهداً على انفسنا ان نمنحهم وحدتهم القومية واستقلالهم .

فهل قصدنا هذا ؟ فاذا كان كذلك فلماذا قسمت البلاد العربية ولا تزال اربع قطع ، وانكر الاستقلال على بعضها .

يجب أن نعترف أننا لم نقطع انفسنا وعوداً للعرب فحسب بل للفرنسيين ايضاً ، ولقد قطعنا وعداً لليهود ايضاً .

فلنعالج النقطة الاولى : وعودنا للفرنسيين :

كتب مكماهون في مراسلاته :

نحن هنا نؤكد لكم تصريح اللورد كيتشنر الذي ارسل اليكم بواسطة علي افندي والذي ضمنت فيه رغبتنا باستقلال البلدان العربية وسكانها[2] كان هذا في آب ( اغسطس )

---

(١) رسائل لورنس ص ٤٠٠

(٢) انطونيوس ، اليقظة العربية ص ٤١٥

عام ١٩١٥ .

وفي مايس عام ١٩١٦ بعدان رمى العرب كامل مقدراتهم بيد الانكليز ، عقدت معاهدة سرية بين فرنسا وانكلترا عُرفت باتفاقية « سيكس بيكو » وبينما كان المفاوضون يكررون تصميم بريطانيا العظمى و ( فرنسا ) على « انشاء دول عربية او اتحاد دول عربية » في بعض المناطق اتفقوا على تقسيم البلدان العربية الى مناطق نفوذ انكليزية وفرنسية وعلى ايجاد ( ادارة دولية ) في فلسطين [1]

كيف يمكن أن هذه الاتفاقية — خصوصاً بشأن فلسطين — قد احترمت وحدة الشعوب العربية او استقلالها ؟ لقد مزقت هذه الوحدة في الحقيقة تمزيقاً . وفوق هذا فقد خصصت فلسطين « بالادارة الدولية » التي لم يؤت على ذكرها قط في المفاوضات مع الشريف حسين .

وأخيراً نشرت الحكومة الروسية الثورية جميع « المعاهدات السرية » . وبما أن معاهدة سيكس بيكو كانت قد قدمت الى الحكومة القيصرية عام ١٩١٦ فقد اعلنت ايضاً . وتمشى في

---

(١) انطونيوس اليقظة العربية ص ٤٢٨ - ٤٢٩

العالم العربي شعور سيء، وسارع الشريف حسين في الكتابة الى مكماهون يستوضحه حقيقة الاشاعات السارية فأكد له مكماهون ان الانكليز لا يزالون على ما هم عليه، وأنهم مصممون على اعلان الحرية والوحدة العربية؛ وأن هذه الاشاعات لم تكن سوى محاولات دنيئة من قبل تركيا « ليخلقوا الشك والشبهة بين القوى المتحالفة والعرب الذين يجاهدون بشرف في سبيل استرجاع حريتهم القديمة.»[1]

ومع ان الحسين اقتنع بقول مكماهون فقد ثار الشك في نفوس العرب ووضع سبعة من زعمائهم مذكرة اعربوا فيها عن قلقهم الذي جعلهم في شك من حسن طوية الانكليز والحسين نفسه. فكانت مذكرتهم باسم الحكومة الانكليزية. وجواباً عليها اصدرت وزارة الخارجية « التصريح للسبعة » « The Declaration to the seven » جاء فيه أنه فيما يختص بالبلاد العربية المحتلة الآن من قبل الجيوش المتحالفة فان سياسة حكومة جلالته ترمي الى « ان الحكومة المستقبلة لهذه المقاطعات يجب أن تكون على أساس رضى المحكومين » وأنه ـ بشأن اولئك الذين لا يزالون تحت الحكم التركي ـ « ترغب حكومة

(١) انطونيوس ـ اليقظة العربية الملحق ص ٦٣١ ـ ٦٣٢

جلالته أن تنال الشعوب المظلومة في تلك المقاطعات حريتها واستقلالها ، وأن حكومة جلالته ستتابع عملها في سبيل تحقيق ذلك الغرض . »[1]

ولمضاعفة التأكيد وُضع تصريح انكليزي ـ فرنسي في السابع من تشرين الثاني عام ١٩١٨ ونشر في فلسطين وسوريا والعراق جاء فيه « إن هدف فرنسا وبريطانيا العظمى في متابعة الحرب التي شهرتها المطامع الالمانية في الشرق هو التحرير التام النهائي لتلك الشعوب المظلومة من قبل الأتراك ، وتأسيس حكومات وطنية وإدارات تستمد صلاحياتها من الحكم الحر حسب رغبة الشعوب الساخطة واختيارها . »[2] « وإن رغبة فرنسا وانكلترا الوحيدة هي في أن يقدما المساعدة الفعّالة في سبيل تسهيل مهمة الحكومات التي سيختارها هؤلاء السكان بكامل حريتهم ، دون ان يكون لحكومتي فرنسا وانكلترا أي رغبة في فرض هذا النظام الحكومي او ذاك على سكان

(١) انطونيوس ـ اليقظة العربية الملحق ص ٤٣٤

(٢) انطونيوس ـ اليقظة العربية ص ٤٣٥

هذه البلدان ٠ »[1]

أمن الممكن وجود تعبير أوضح من هذا ؟ هل هناك اقتراح لأية مدة تكون فيها البلاد تحت حماية الدول العظمى، أو فرض لأية حكومة تخالف رغبة المحكومين ؟ وإذا كان المقصود الحقيقي من معاهدة سيكس بيكو أن تطابق هذه التصريحات فلماذا أُخفيت عن الحسين الى أن أعلنتها الحكومة البلشفية ؟ ولماذا كانت معاهدة سرية ؟ ذلك لأنها كانت بدون شك غير مطابقة للوعود التي قطعت للعرب والتي حملت العرب على الانضمام الى صفوفنا ٠ وليس من الضروري اليوم ان نقبل حكم أي انسان مهما كان خبيراً فالتصريحات نفسها بين أيدينا ٠

وقد استشهد بشخصية بارزة في الحرب العظمى — في الحقيقة الشخصية الوحيدة التي أصبحت شهرتها تقربها من الخيال — على أن الانكليز وفوا بعهودهم أخيراً و« خرجوا من الشؤون العربية طاهري الأيدي ٠ »[2]

وكتب لورنس أن معاهدة «سيكس بيكو» كانت أشبه بالمرساة التي استقرت بواسطتها سفينة القضية العربية ٠ وأنه

---

(١) انطونيوس — اليقظة العربية ملحق ص ٤٣١

(٢) اعمدة الحكمة السبع ص ٢٧٦ . ايضاً رسائل لورنس ص٣٤٥-٣٤٦

— فيما يتعلق بتلك المعاهدة ووعود مكماهون — لم ير اعوجاجاً او تنافراً في هذه الوثائق الأربع . و « لم يعرف احداً رأى ذلك . » ولكنه كتب ايضاً أن الفرنسيين « عملوا بنشاط لاختيار الانتداب » ويتابع « وأعانهم الانكليز لقاء مساومة قبيحة ليظفروا بالعراق . وبموجب معاهدة سيكس بيكو نال الفرنسيون الساحل فقط : وكان على العرب (الادارة الوطنية) أن ينالوا حلب، حماه ، حمص، دمشق وشرق الاردن. وهكذا نال الفرنسيون والانكليز ما أرادوا بواسطة لعبة الانتداب . وكانت الحدود المذكورة في معاهدة سيكس بيكو سخيفة، ولكنها اعترفت بمطالبة سوريا بالحكم الذاتي ، وكانت أفضل من الحل الأخير بعشرات الألوف من المرات . » [٢]

هذا قول غير كثير ؛ ومن المؤكد أنه لا يدل على « الخروج من الشؤون العربية بذيل طاهر » وفيما يتعلق « بحل العقدة » من قبل « ونستون تشرشل » سنة ١٩٢١ [٣] ، فان العقدة كان حلها من الصعوبة بمكان حتى أنها اليوم تنتج اسوأ مشاكل العالم في ايامنا الحاضرة عام ١٩٣٩ .

(١) رسائل لورنس ض ٢٨٢
(٢) رسائل لورنس ص٢٨٢
(٣) اعمدة الحكمة السبع ص ٦٧١

كل من يقرأ « الأعمدة السبع » و « رسائل لورنس » يجد أن مؤلفها — كما يقول هو نفسه — كان « متفطر القلب »[1] وان هذا التفطر القلبي كان مسبباً عن حالته الغامضة في أثناء الحرب، أكثر من كونه مسبباً عن قساوة الحرب وفظاعتها. ومرضه النفسي هذا جعله أخيراً متعطشاً للاعتقاد أن كل ما يمكن عمله قد عمل، وجعله ايضاً « سعيداً بالانسحاب من محيط سياسي لم يكن منسجما مع نفسيته على الاطلاق. »[2]

ويظهر تردده في أحكامه واختلاف سرده للوعود في كتاباته مرة بعد مره. فأهمية نفط الموصل للامبراطورية الانكليزية مثال ظاهر. يقول لورنس في موضع من المواضع:

لقد اردت تكوين امة جديدة، وأن اعيد الى العالم نفوذاً ضائعاً، وأن امنح عشرين مليوناً من الساميين أساساً يبنون عليه قصر آمالهم القومية. وغاية سامية كهذه أثارت نبل عقلهم الكامل وجعلتهم يلعبون دوراً عظيماً في مجرى الحوادث. ولكن عندما ربحنا الحرب خلعوا علي مسؤولية وجود الغموض والشك في املاك كنا من النفط، كما خلعوا علي مسؤولية خراب السياسة الاستعمارية

(١) « يوجد تفطر في مؤلفاتي كما اخبرتك، واظن أنها ارادتي » راجع رسائل لورنس ص ٨٧٢ رسالته للادي استور.

(٢) رسائل لورنس ص ٢٦٦

الفرنسية في الشرق .[1]

ولكنه يقول في مكان آخر :

لم يكن لشركة النفط ــ كما شاع ــ اي تأثير في تقرير خطتنا السياسية نحو العراق . أستطيع أن اقول هذا بكل تأكيد. واني أعرف أن الأجانب «يشمون الفيران»[2] Smelling rats دائماً. ولكنك في الواقع لو اخبرت احد رجال وزارة الخارجية ان شركات النفط تتطلب هذا الأمر او ذاك لانكروه عليها باسم المبدأ . واستطيع ان اقول إن لويد جورج ، و كورزن ، وبونار لو وارنولد ولسن وانا نفسي لم نعر شركة النفط الامبراطورية اي اهتمام . فالسياسة البريطانية في العراق بنيت على أسس امبراطورية صرفة[3]

نعم على اسس امبراطورية خالصة . أليس خط البترول من الموصل الى الساحة عند حيفا واحداً من هذه الأسس الامبراطورية؟

لقد تكلمت عن موقف لورنس الغامض في اثناء الحرب. وانا أتكلم تماماً . كما تكلم هو عن نفسه باستخفاف وازدراء . لايحلم

(١) رسائل لورنس ص ٢٦٣

(٢) هذا « المثل » يعني بالانكليزية ان الناس يستبقون الحوادث ويؤولونها من عندهم كما يشاؤون

(٣) رسائل لورنس ص ٨٣١

أحد في خلعهما عليه اذا كان قد رأى اهوال الحرب وخيباتها الفظيعة التي لا غنى عنها . وكانت الغاية من الحرب عند العرب الحصول على الحرية ، ولم تكن عند الانكليزي الا لنفس الغرض . ولورنس كان انكليزياً . وبما أن العرب وضعوا بلادهم في المقام الأول كان عليه ان يفعل هو نفسه كذلك . ولا أقدر أن اتصور عكس ذلك إذا سلمنا بضرورة الحرب . بيد أن من الظاهر أنه كرجل شريف لم يكن يطيق مجرد العلم أن الحكومة الانكليزية كانت تستفيد من الثورة العربية لمصالحها الخاصة المجردة . واهتم لورنس بالناحية العربية ايضا ، وكان مجبراً على استثمار مُثل العرب العليا للغايات الانكليزية . وسُئل عما اذا كان يوافق على الوعود الانكليزية فأجاب . « ولما لم أكن بالمجنون الكامل فقد رأيت أن الوعود للعرب ستكون بعد الحرب العظمي أوراقاً ميته . »[1] ... « وأكدت لهم أن انكلترا حفظت كلمتها نصاً وروحاً ، عند ذلك قاموا بأعمالهم المجيدة . إنما كنت ، دون شك ، خجلاً على الدوام مما عملنا معاً بدلاً من أن اكون فخوراً »[2] وهذه الملاحظة واردة مرات

(١) الاعمدة السبع ص ٢٧٥

(٢) الاعمدة السبع ص ٢٧٦

عديدة في « الأعمدة السبع » وقد دلت ، فوق دلالتها على ان لورنس لم يكن مرتاح العقل والروح ، على تنبؤ ما سيحدث عقب الحرب

وانتهت الحرب أخيراً ، واجتمع ممثلو الحلفاء والأمم الموحدة (Associated Nations) في باريس ليقرروا بنود الصلح. ولاقى فيصل صعوبة في السماح له بالاشتراك بهذا المؤتمر كممثل لوالده . وقد كان منذ البدء عند البحر مع سياسيي الغرب From the first he was at sea with the diplom atists of - the west ).

إن الفكرة القائلة بأن الشرقي هو الغريب الغامض دائماً لأنه غامض علينا هي فقط نتيجة تفكير خامل معوج . هو غامض علينا لأننا لا نعرفه . ونحن مبهمون لديه لنفس السبب . ولم يعرف فيصل الرجال الذين كان عليه أن يأخذ معهم في المناقشة في المؤتمر ، وهم عرفوا هذه النقطة واستخدموها . وقد فرضت القوى العظمى شروط الحل فيما يختص بفلسطين والبلدان العربية فرضاً كما فعلت بالمانيا والنمسا ، العدوتين السابقتين ، وتجاهلت كل الوعود المقطوعة ورغبات الأهالي انفسهم . وكانت روسيا قد انسحبت من المسرح وبقيت فرنسا وانكلترا تتقاسمان غنائم الحرب . وليس من الضروري قبول رأي أي شخص ، حتى

لورنس ، طالما يجد القراء الوعود المقطوعة إبان اشتداد الحرب فهم يستطيعون ان يكونوا حكما لأنفسهم ورأيا .

وُعد العرب ، لا مرة اومرتين فحسب بل مرات عديدة بالاستقلال والوحدة – « دولة عربية او اتحاد دول عربيـة » تكون حكومتها حسب رغبات السكان الوطنيين . » ومع هذا كانت النتيجة ان يقسم العرب مرة بعد اخري ، وأن ينالوا حكما غير ذاتي ولا اختياري ، بعد مؤتمر الصلح واجتماع المجلس الأعلى لجمعية الامم الحديثة في سان ريمون . ( ١٩٢٠ )

قسمت سوريا الى : سوريا ولبنان وفلسطين والعراق (؟) وشرق الاردن . وحسب هذا التقسيم اجبرت سوريا على قبول « الانتداب » بدلا من الاستقلال ، هذا الانتداب الذي لم يستحدث الا بعد الحرب . فمن الطبيعي إذن ألا يكون العرب قد طلبوه او قبلوا به قبلا . ولما رأى سكان سوريا أنهم لا مندوحة لهم من « الانتداب » طلبوا انتداباً اميركياً ، او انكليزياً إذا كان الأول غير ممكن ؛ ورفضوا رفضاً تاماً أي انتداب فرنسي . ومع ذلك فقدعهد الى فرنسا بهذا الانتداب . واحتجت العراق على هذا النوع من الحكم الجديد إلا أنهـا طلبت انتداباً اميركياً إذا لم يكن من الأمر بد فلم يصغ احد

لهذا الاحتجاج وكان حصة الانكليز ونودي بفيصل ملكاً عليه، وأعطي الامير عبد الله شرق الاردن .

وسلمت فلسطين الى بريطانيا العظمى واصبحت تحت انتدابها .

فهل كانت هذه الحكومة « مبنية على اساس قبول المحكومين » وهل « استمدت هذه الإدارات صلاحياتها من الحكم الحر حسب رغبات الشعوب الساخطة ؟ » وهل كانت كما « لو أن هذه الشعوب اختارتها بملء ارادتها ؟ » إن هذه الفكرة مضحكة ، او أنها تكون مضحكة إذا لم تكن مأساة ؛ ولا يحتاج الواحد منا الى خبير فني للاجابة على هذه الأسئلة ، فهي تجيب نفسها !

وكانت نتيجة هذه المعالجة « الاستعمارية » للبلدان العربية كما ظن أن تكون . فارتبك فيصل السيء الحظ ارتباكاً كلياً إثر السياسة التي اتبعت في مؤتمر « الصلح » وقبل شروط الفرنسيين التي جعلت حالة سوريا تحت الحماية نوعاً من العبودية ، فثارت سوريا عليه ، ومشى الفرنسيون عليها واحتلوا المدينة وطردوا فيصل ، وكان هذا بدء المصيبة .

وتبع العراق سوريا فثار العرب ثورة عامة وضُرب عليهم

بأيد من حديد . وتاريخهم لا يدخل في موضوعي هذا الخاص بفلسطين؛ غير أني استطيع أن اقول إنه ساور البلدان العربية قلق بعد قلق نتج عنه الشك والشعور السيء ، وموت الآلاف من العرب والمئات من الانكليز . « وقدرت خسارة الانكليز بما يزيد عن الأربعين مليوناً من الجنيهات »[1] ولم تقدر - طبعاً - خسائر العرب .

وفي الوقت الأخير ، وافق الانكليز على الغاء الانتداب في العراق ، فدخل عصبة الامم كأمة مستقلة عام ١٩٣٢ ، والغى الفرنسيون ايضاً انتداب سوريا ولبنان عام ١٩٣٦ ، ولكنهم الى الآن لم يصادقوا على التسليم ( ١٩٣٩ )

علينا أن نعود الآن لنبحث المسألة الفلسطينية الأشد تعقداً .

كانت فلسطين ، بدون شك ، في جملة البلدان العربية التي وُعدت بالحرية مراراً . وكما أظهرت سابقاً ، فان الادعاء بأنها ادرجت مع « المقاطعات الواقعة غربي حلب وحمص وحماه ودمشق » لا يمكن أن يصدق . هي تقع بعيداً الى الجنوب الغربي من هذه المدن وهي ، فوق ذلك ، مقاطعة لم يطالب بها

(١) انطونيوس - اليقظة العربية ص ٣١٤ - ٣١٥

الفرنسيون مطلقاً . لقد كانت مقاطعة « عربية صريحة » . ولم يكن هناك أية حجة لاستثنائها من الوعد بالحرية للشعوب العربية .

ونحن — كأمة نشأت على الانجيل — نجد الحقيقة بأن فلسطين يمكن أن توصف « بالعربية الصريحة » صدمة لنا . ومع اننا جميعاً نعلم أن الرومان دمروا القدس عام ١٣٥ب.م. وأن اليهود انتشروا في العالم ، فاننا لا نزال نعلق في مخيلاتنا فلسطين باليهود وباليهود فقط . او أننا اذا اعتقدنا أن اليهود هم بتأكيد « في كل العالم » وأن أحداً يجب أن يكون قد عاش في فلسطين في اثناء الألفي سنة التي انقضت بعد الانحلال ، فاننا لا نعرف اولئك السكان وبأي حق هم في فلسطين . وكانت القصص عن حالة المسيحيين المحزنة تنقل الينا بواسطة السياح . ولكن الحقيقة بأن جموعهم المتعبدة كانت ترعى من قبل الاتراك . وقد أوحت لنا تلك الحالة أنه إن كان في فلسطين سكان غير يهود فهم الاتراك .

كتب لورنس الى د . ج . هوجارت عام ١٩١٥ يقول « انا موظف خرائط أكتب تقارير جغرافية ، واجرب اقناعهم أن

سوريا ليست مأهولة بالترك فقط [1] » ويمكن أن تكون مهمته أشد صعوبة لو واجهت حقيقة كون العرب مسلمين ، غير انكليز ، واذا لم يكونوا اترا كاً فلا شك انهم قريبون منهم .

دعونا ندرك ( اولاً ) أن العرب أخذوا فلسطين ، كما فعل اليهود ، غزواً . مع أن هذا الغزو كان اكمل من غزو اليهود . ( ثانياً ) وأنهم بعد ذلك احتلوا فلسطين . ( ثالثاً ) وانهم لا يزالون محتلين فلسطين منذ ذلك العهد ، اي منذ الف وثلاثمائة سنة .

وهم يدعون أنهم في الحقيقة من أقدم الشعوب التي سكنت فلسطين قبل اليهود ، ولكن هذا الادعاء يمكن أن يرد . انما الشيء الثابت انهم سكنوا فلسطين منذ القرن السابع على الأقل [2] .

وفي القرن الثالث عشر حارب الأتراك العرب وانتصروا عليهم إلا انهم لم يجردوهم من بلادهم ولم يحتلوها إلا حكاماً . ويمكن أن يقال إن مركزهم في فلسطين بالأمس كان كمركز الانكليز فى الهند اليوم .

وماذا حل عندئذ باليهود الذين « كانوا هناك اولاً » كما

(١) رسائل لورنس ص ١٩٢

(٢) انطونيوس – اليقظة العربية ص ٣٩٠

ادّعي مراراً وتكراراً ؟ لقد انتشروا فهم موجودون في كل مكان !

نحن لا نعرف ، كما أنه لن يمكن لأحد أن يعرف ، من «كان هناك اولا . انما نحن نعرف أن الرجوع الى الوراء الفاً وثلاثمائة عام لنبحث في التاريخ ونرجم البشرية الحائرة الى الأرض التي احتلتها ضرب من المستحيل . نحن الانكليز لا ننتظر أن نسكن المانيا او ندعي بذلك لمجرد كون اجدادنا « الانجلوساكسون » عاشوا هناك أياماً . ولا تسمح للولش welsh ان يمتلكوا انكلترا بناء على أنهم كانوا هنا قبلنا . إنها لفكرة مضحكة ! إن مكوث امة ألفاً وثلاثمائة سنة في أرض من الأراضي يخول لها الحق الكامل بامتلاكها امتلاكا لا يحتمل الجدل والنزاع ، ولم يحدث هذا مع الأسف الا في فلسطين .

كان هناك بضعة من اليهود في فلسطين اول هذا القرن تبلغ خمسة بالمئة من مجموع السكان . وزادت الدعاية الصهيونية هذا العدد شيئاً فشيئاً حتى أصبح عند اندلاع نار الحرب سبعة بالمئة ، وفي عام ١٩١٩ عشرة بالمئة . وكان عدد العرب اذن تسعين بالمئة . وإنه لمن الصعب وجود بلد سكانه أكثر تشابها في

النوع . فتسمية فلسطين «عربية صريحة» تسمية صحيحة بكل ما في الكلمة من معنى .

وعلى كل حال فقد كانت فلسطين ارضاً مقدسة في نظر اليهود كما كانت في نظر المسلمين والمسيحيين ، وفوق ذلك أرضهم . وفي عيد الفصح من كل عام يذكرون انفسهم بهذا قائلين : « العام المقبل في القدس » فهم يعتقدون ان يهوذا وعدهم بفلسطين الى الأبد ويجب أن يعودوا اليها يوماً من الايام .

وكان من الدائم وجود بعض اليهود في فلسطين متأثرين بمثل هذه الاعتبارات . عاشوا هناك لأنهم أحبوها . وقد كانوا « الصهيونيين » الصريحين الذين درسوا وعملوا وكتبوا ليثيروا مقاومة البشر وكرههم . وفي النصف الأخير من القرن التاسع عشر حط بعض اليهود في فلسطين وبدأوا بحرثها وزرعها . وساعد هذه الموجات اليهودية الجهود والأموال الموقوفة لهذه الغاية خصوصاً من قبل اللورد روتسفيلد . وقد اظهر هؤلاء ان مقدرة اجدادهم الأقدمين في الحراثة والزراعة لم تمت ، ولذا عمدوا الى توجيه النداآت الى إخوانهم الذين اجبروا على الحياة في المدن في البلدان الاخرى .

اسست الجمهورية الصهيونية عام ١٨٩٧ . وكان مؤسسها

تيودور هرزل ، وغرضه توحيد جميع اولئك اليهود الذين ارادوا ان يعبروا عن عبقريتهم القومية في جمعية واحدة ، وأمة واحدة لها وطنها الخاص ، بدلا من ان يكونوا افراداً متفرقين مشتتين في بلدان عديدة . ولم يكن من الضروري ان يقصد بهذا الوطن فلسطين : بل كان المقصود منه ارضاً يستطيع اليهود ان يأووا اليها ويتخلصوا من كونهم أقلية دائمة . وقبول هرزل بيوجاندا لتأسيس هذه الدولة عندما وهبها من قبل الحكومة الانكليزية يدلنا على ان هذه الفكرة هي الاساسية. ولقد كان هذا القبول احتياطياً ، ورُفض أثر قرار المؤتمر الصهيوني ، وتوجه الرأي الصهيوني الى أن فلسطين هي البلد الوحيد الذي يمكن للدولة اليهودية ان تؤسس فيه .

ونشرت دعاية واسعة منذ ذلك الحين من قبل الصهيونية وبذل صهيونيو العالم الاموال الطائلة لتحقيق اهدافها . ومع ذلك فقد كان عدد الصهيونيين في فلسطين عند بدء الحرب — كما قلت سابقاً — صغيراً جداً .

ومن الطبيعي أن اليهود — مثلنا ومثل العرب — رأوا في اثناء الحرب فرصة لتحقيق آمالهم . وكان مقر اليهود العام في برلين . وقد قيل إن المانيا كانت تعد خطة لكسب عطف

اليهود وضمهم الى صفوفها عندما خطت بريطانيا العظمى الخطوة نفسها وقدمت لهم مقترحات ارضتهم .

هنا ايضاً نرى الزامات الحرب القاسية . فقد اردنا مساعدة العرب وارادوا حريتهم ثمناً لها . وهكذا كان الأمر مع اليهود . اردنا مساعدتهم ورغبوا في فلسطين لقاء ذلك . ومن الضروري ادراك هذه الحقائق لأن ما حدث بعد ذلك لا يمكن فهمه الا على ضوئها . والواقع أن اليهود والعرب والانكليز عملوا في حقول مصالحهم الخاصة، كما تفعل كل الأمم ، وكما ستظل تفعل الى الأبد . وعندما انتهت الحرب قام كل يطالب بما يريد ويضع يده على ما يقدر .. ولئن كان في الأمر اي خيانة فليست في عمل كل من هذه الفئات الثلاث لمصالحها الخاصة، بل في وجود وعود لم تحترم ولم تنفذ

ويسخر انطونيوس من بعض العوامل التي كانت وراء الوعود المقطوعة نهائياً للصهيونية « كخرافات واساطير دينية » وهي (١) أن الألمان كانوا على اهبة منح اليهود وعوداً مقابل مساعدتهم إلا ان الانكليز ارادوا ان يقطعوا عليهم الطريق (٢) وأن تأثير اليهود في الولايات المتحدة ، خصوصاً في الصحافة، كان قوياً جداً ، وأن الحلفاء كانوا يرغبون كثيراً في دخول

اميركا الحرب الى جانبهم ، (٣) وان الدكتور ويزمن الذي لا يعد فقط رئيساً للجمعية الصهيونية بل و كيماوياً عظيما مشهوراً اكتشف مركباً كيماوياً حربياً ووضعه تحت تصرف الانكليز. وكما قال المستر كولدنج ( Colding ) ،الذي يعرف دون شك ما يكتب ، أن الدكتور ويزمن« رفض اية مكافأة شخصية» [١]

وفلسطين لم تكن على الأقل مكافأة غير جليلة لأبناء جنسه من نوع آخر . وعلى كل حال ، فاذا كانت هذه العوامل « خرافات واساطير دينية » او لم تكن ، فان لدينا شيئاً واضحاً جداً . إن انكلترا والمانيا كلتاهما ارادتا المساعدة اليهودية ، والذي نالها هم الانكليز لأنهم سارعوا في اكتسابها حتى ان انطونيوس يعلن « أن الحلفاء استثمروا أهمية الخدمات اليهودية التي لم تكن لتظهر الى حيز الوجود لولا وعد بلفور . وهذا ما يبرر جهاد اليهود واعتقادهم بأن لهم حقاً صريحاً وصنعاً جميلا على الحلفاء . [٢]

وكما قلت سابقا اعتقد أن الكلام على « صنع الجميل» ليس في محله الآن . دعونا نلازم الحقيقة بأن الانكليز ارادوا

---

(١) المسألة اليهودية ص ١٨٥

(٢) اليقظة العربية ص ٣٩٦

مساعدة اليهود ، وأن وعد بلفور كان ثمن هذه المساعدة .

فماذا كان وعد بلفور ؟

لقد كان تقريراً صادراً عن الحكومة البريطانية في تشرين الثاني ( نوفمبر ) من عام ١٩١٧ جاء فيه « إن حكومة جلالته تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين وستبذل قصارى جهدها لتحقيق هذا الغرض ، مع العلم أنه لن يقدم على شيء من شأنه الضر بالمصالح الدينية والمدنية للأوساط غير اليهودية في فلسطين ، او المصالح والحقوق التي يتمتع بها اليهود في اي بلد آخر . » [١]

وكانت المفاوضات التي أدت الى هذا التصريح على الأغلب في يد اللورد بلفور والدكتور ويزمن ، كما هو عنوانه . وليس ما جاء في الفقرة السابقة نصه الكامل ، انما اقتبست منه ما يعرف المراد منه .

يتعلق التصريح بفلسطين ، أي ببلد عربي وعدنا سكانه بحريتهم وفزنا بمساعدتهم مقابل هذا الوعد . ولكن رغبات هذا الشعب لم يُلتفت اليها مرة واحدة !

---

(١) المسألة اليهودية لويس كولدينج ص ١٨٤

Louis Golding , The Jewish problem p 184

يتعلق التصريح بفلسطين ، أي ببلد عربي كان تسعون بالمئة من سكانه عرباً ؛ ولكن كلمة «عربي» لا تأتي على الاطلاق في هذه الوثيقة العجيبة .

يتعلق التصريح بفلسطين ، أي بشعب سكن تلك الأرض الفاً وثلاثمائة سنة ، ومع ذلك فان الاعتراف بوجوده يُشار اليه مرة بعد اخرى بـ « الأوساط غير اليهودية » .

غير اليهودية !! إن هذا ينطبق على حالة الـ « Welsh » الذين سكنوا بريطانيا العظمى زمناً يسيراً ، فيما إذا دعوا الامة الانكليزية بأسرها بـ « اوساط انكلترا غير الولشية » .

لم يكن للحكومة الانكليزية حق بقطع هذا الوعد . لقد كان فاسداً منذ البدء . ويتخذ المدافعون عنه عند تبريره هذه الحجة : « إننا فتحنا فلسطين ، ولنا ملء الحق بأن نفعل بها ما نشاء . » نحن « فتحنا » فلسطين بهذه الوسيلة العجيبة : وعدناها بمنح سكانها حريتهم . فجليناها الى جهتنا . ولكن اذا كنا في الحقيقة قد فتحناها فإن المبرر المعطى هو كما يظهر سخيف . فهل يحق لموسوليني ان « يفعل ما يشاء » في الحبشة ، او اليابان في الصين ، لمجرد انتصارهم عليها والظفر بها .

لا يحق لعصبة الامم ان تمنح بريطانيا انتداباً على فلسطين ،

فكيف بانتداب يُشترط فيه وعد بلفور ؟! وقد يظهر هـذا غريباً للذين يؤمنون « بقوة السياسه » ، ولكن من الحق القول ان للامم الضعيفه حقوقاً خاصة بها ، لا تقل عن حقوق الامم القوية في اهميتها على الرغم من عجز تلك الامم الضعيفة عن تحقيقها .

لم يقبل العرب دون شك هذه النظريات الدوليـة ، ولم يذعنوا ولن يذعنوا لحقنا في تجريدهم من أرضهم على مرأى من أعينهم .

دعونا نبحث ملياً نصوص التصريح . لنفرض أنـه يجوز لنا ان نعقد هذه الاتفاقات دون استشارة اولئك الذين وعدناهم « بادارات وحكومة تستمد صلاحياتها من الحكم الحر حسب رغبة الشعوب الساخطة واختيارها » [1] فماذا يمنح اليهود في الحقيقة تصريح بلفور : « تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين » لا « فلسطين لليهود » ولا « فلسطين كدولة يهودية » انما وطن قومي في فلسطين . فما معنى هذه الجملة ؟ هي جديدة . لم يسمع

(١) راجع « التصريح الانكليزي - الفرنسي » انطونيوس ، اليقظة العربية الملحق ص ٤٣٥

احد من قبل بوطن قومي لشعب ما ، في ارض غيره . وهذا لا يعني أنها شي. عاطل او غير عملي؛ ولكنها على كل حال تسمح بالسؤال عن عدم تحديدها طالما هي جديدة . لقد كان هـذا الوعد صدمة ، وكان المراد منه ، كالمراد من وعود مكماهون للحسين ، إدخال شعب ، مع انه صغير ، الى جهتنا في الحرب . وهكذا كان المراد منه خطيراً .

وعلى كل ،فان أحداً لم يخبرنا ماذا كان المراد منـه . ومن المستحيل أن يعتقد أحد ان الدكتور ويزمن ، رئيس الحركة الصهيونية الذي يعد من أقدر رجال العصر لم يطلب الوعد بايجاد دولة يهودية في فلسطين . يستحيل هذا الاعتقاد لأنه أعلن فيما بعد أن فلسطين ستصبح مع الزمن دولة يهودية Jewish State كما ان انكلترا اليوم دولة انكليزية . وفوق ذلك فقد أكد لنا ان اللورد بلفور وافق –شفهياً– انها يجب ان تكون كذلك.. فهل من المعقول ان عرب فلسطين يقبلون حتما تأكيداً ما،ولو صدر من أصدق رجل ، بأن اللورد بلفور قطع شفهياً وعداً لم يجرؤ على تسجيله ؟

إن عدم تسجيل هذا الوعد يمكن ان يفسر بطريقتين على

كل منهما مسحة من الحقيقة :

فالأولى اننا اذا اخذنا بعين الاعتبار تاريخ الصهيونية ، وكل مثلها ـ التي لا ينكرها احد ـ وما تستند اليه من عقول راجحة ، واموال ، وتأييد ، فان عدد اليهود الذين يرغبون حقاً في الهجرة الى فلسطين والعيش فيها ما كان إلا اقلية ضئيلة . وقد يكون اللورد بلفور فكّر جدّياً في جعلهم قوة حقيقية أو اكثرية في تلك البلاد التي ما كانت لتستحق ذلك الاهتمام كلّه .

والثانية أنه في هذا العالم الغامض ، من الحكمة وضع الوعود بنصوص غامضة جهد الطاقة . وطن قومي ! قول جميل ! ومن يقدر على تفسير هذا القول . لا شك في ان اللورد بلفور من الذين لا يقدرون ، فبيت القصيد إذن في التصريح كانت الجملة : الوطن القومي .

والدكتور ويزمن قبلها ليجعلها تعني كل ما يمكن أن تعني . أما العرب فرفضوها بشدة . وكان الملك فيصل قد اجرى اتفاقاً بينه وبين الدكتور ويزمن عام ١٩١٩ قبل فيه معظم ما جاء في تصريح بلفور ولكنه دهش على ما يظهر لتهوره وطيشه فأردف الاتفاق قبل توقيعه بعبارة «على شرط ان ينال العرب استقلالهم» .

«ولكنني لن أكون مسؤولا عن كلمة واحدة مما جاء في هذا الاتفاق فيما إذا أجري اقل تعديل او نزوح ، وستكون هذه الاتفاقية ملغاة لا قيمة لها ولا وزن ، ولست على استعداد للاجابة على أي سؤال يتعلق بذلك .»[1]

وعندما علم العرب نصوص معاهدة الصلح دعوا الى مؤتمر اقيم في دمشق في تموز ( يوليو ) من عام ١٩١٩ وجاء في قراراته المأخوذة والموافق عليها :

نحن نرفض طلب اليهود تأسيس وطن قومي في ذلك الجزء من سوريا الجنوبيه المعروف بفلسطين . ونحن نعارض الهجرة اليهودية الى أي قسم من البلاد . نحن لا نعترف أن لهم حقاً ، ونعتبر مطالبهم تهديداً خطراً لحياتنا القومية والسياسية والاقتصادية . وسيظل إخواننا اليهود المواطنون يتمتعون بالحقوق ويتحملون المسؤوليات المشتركة بيننا .

وكان للملك فيصل ، بعد ان عرف شعور شعبه نحو هذه المشكلة ، طلب ارسال بعثة ترى في الأمر بنفسها . وقوبل هذا الاقتراح ببرود من قبل الفئات ذوات المصلحة كبريطانيا العظمى وفرنسا . ولكنها من جهة أخرى قوبلت بحرارة من

(١) انطونيوس اليقظة العربية ص ٤٣٩

قبل دولة ليس لها مصلحة ما : الولايات المتحدة الاميركية ؟ وفي النهاية ارسل الأمير كيون لجنة « كرين » ولتقريرها اهمية كبرى لا سيما وانها مجردة عن كل مصلحة. وقدمت اللجنة تقرير كنج ـ كرين والاسم مأخوذ من المندوبين الدكتور هنري كنج والمستر تشارلس كرين . وقد بحث هذان السيدان ، فيما بحثا من امور هامة ، الوطن القومي المقترح ، فذما محاولة « الصهيونيين المتطرفين » لجعل فلسطين ، بواسطة الهجرة غير المحدودة « دولة يهودية صريحة » وأكدا أن « وطناً قومياً للشعب اليهودي لا يعني جعل فلسطين دولة يهودية . ولا يمكن أن تُخلق دولة يهودية كهذه بدون التعدي المؤلم على الحريات الدينية والمدنية للأوساط غير اليهودية الكائنة في فلسطين »[1]

وهما يذكران انه قد ظهر لهما اثناء البحث مع الممثلين اليهود أن الصهيونيين قد تطلعوا الى تجريد السكان غير اليهود

---

(١) يستعمل المندوبان هذه الكلمات المقتطفة غالباً من تصريح بلفور ويجب ان لا يسهو عن البال أنه قد ذكر في التصريح انه بينا يؤسس الوطن القومي لليهود « لا يقدم على شيء من شأنه الضر بالمصالح الدينية والمدنية للاوساط غير اليهودية في فلسطين . »

تجريداً عملياً من ملكية فلسطين بطرق الشراء المختلفة .[1]

وتذهب اللجنة الى القول إن اعضاءها أنفسهم شرعوا في درس المسألة الصهيونية بنفوس مهيئة للعطف عليها . ويجدر بنا ان نذكر لأعضاء اللجنة عدم تحيزهم للولايات المتحدة التي لم يكن لها اي مصلحة في فلسطين تعدو مصلحة المسيحية عامة، « لأننا في بلادنا — اي الولايات المتحدة — اقل الناس عداء للساميين .

ومهما يكن فقد وجدوا، وكانوا مجبرين على نشر ما وجدوه، أن « الشعوب غير اليهودية في فلسطين — تقريباً تسعة اعشار المجموع — هم ضد المنهاج الصهيوني على خط مستقيم . » ولم يكن سكان فلسطين متفقين على شيء اتفاقهم على هذا الأمر . وهذه المعارضة لم تكن محدودة ولا محصورة بفلسطين ، بل شاركهم فيها سكان سوريا قاطبة . . . » « وأكثر من اثنين وسبعين بالمئة — الف وثلاثمائة وخمسون — من العرائض والاحتجاجات في كل سوريا كانت ضد الحركة الصهيونية . وكان لطلب الاتحاد السوري والاستقلال تشجيع أكبر »[2]

(١) انطونيوس ، اليقظة العربية . الملحق ص ٤٤٨ — ٤٤٩

(١) سيقف القراء على اهمية هذين الالتماسين اللذين كان لهما تشجيع اكبر .

« لا يجب ان يغمض مؤتمر الصلح عينيه عن الحقيقة بأن الشعور ضد الصهيونية في سوريا وفلسطين عظيم لا يستخف به. ولم تأخذ اللجنة رأي أي موظف انكليزي في العمل بالمنهاج الصهيوني الا وارتأى أن السيف والقوة لازمان لذلك. وقد اعتقد الضباط اجمالا أنه يقتضي لا أقل من خمسين الف جندي للبدء بتنفيذه » .

وهذا دليل يؤيدان الصهيونية تريد أخذ فلسطين بالقوة . إن القوة تستخدم لتنفيذ القوانين احياناً ، ولكن لا يجوز مطلقاً ان تستخدم لتنفيذ امور ليس فيها — من الأصل — حق ولا عدل. وإن ادعاء اليهود حق تملك فلسطين استناداً على سكناهم لها منذ الفي سنة ليس له اقل اعتبار يعمل به .

« تجاه كل هذه الاعتبارات ، وبشعور عميق طيب نحو القضية اليهودية يجد المندوبان نفسيهما مضطرين الى التوصية بمنهاج صهيوني مخفض ومع ذلك فيجب ان يعمل به بتدرج كبير . يعني هذا تحديد الهجرة اليهودية تحديداً نهائياً ، والغاء مشروع جعل فلسطين وطناً قومياً يهودياً »

اسهبت في الاقتطاف من تقرير كنج — كرين بسبب

المحاولات الدائمة لاظهار معارضة الفلسطينيين وسائر العرب للخطة الصهيونية كخطة ارهابية قام بها بعض اللصوص وقطاع الطرق . وقد أكد للانكليز أن فلاحي فلسطين كانوا اصدقاء لليهود وفي الحقيقة شاكرين لهم . وأن الذي كان غير شاكر ومناوي، هو صاحب الأرض الغائب . وقد التُمس منهم أن « يؤدبوا » العصابات التي لولاها لكانت البلاد في سلم وأمان ؛ والتُمس منهم ايضاً ألاّ يستعملوا الشدة في اعادة فوضى مصطنعة سببها فوضويون أغلبهم غير فلسطينيين بل من عرب سوريا وشرق الاردن ، واعتُقد ايضاً أن الأسلاك الشائكة المنصوبة على حدود فلسطين تمنع المجرمين من دخول فلسطين وتعيد السلم إليها .

اظهرت الحوادث أن هذا خداع ، وان اولئك الموظفين الانكليز الذين اعتقدوا منذ عام ١٩١٩ « أن قوة لا تقل عن الخمسين الف جندي تلزم للبدء بتنفيذ برنامج الصهيونيين » كانوا على حق . والمعارضة لم تصدر عن قسم واحد من السكان بل من الشعب كله . وتجاهل هذه الحقيقة يعني اقتراف خطأ واضح .

وزاد سياق الحوادث منذ عام ١٩١٩ في هول الصيبة .
ومن الحق ان يعترف انه لم يكن باستطاعة انسان ان يتنبأ بها من قبل . كما انه لم يكن بمقدور اللورد بلفور ولا الدكتور وزمن ، ولا أي انسان حي ، التخمين بان موجة الاضطهاد اللاسامية سترتفع وتقلب قطرات المهاجرة الصهيونية الى فلسطين الى فيضان او طغيان . لقد توصل ادولف هتلر الى الحكم في المانيا عام ١٩٣٢ . واتخذ تدابير أشبه بمظالم القرون الوسطى ضد اليهود . فلا الخدمة العامة للدولة، ولا جراح الحرب الماضية او اوسمتها ، ولا النبوغ العلمي في الطبيعيات او الأدب او الفن ، استطاعت حماية أي يهودي الماني من أشد الاضطهادات توحشاً . ولا يزال هذا الاضطهاد في أوجه ، وانتشر في النمسا عندما أخذها هتلر وأثر في بولونيا وبعض الدول البلقانية وغزا تشيكوسلوفاكيا عندما احتلت ارض السوديت . فليست الحريات ولا الامتلاكات او الأشخاص غير « الآريين » مضمونة السلام . ونتيجة عدم هذه الضمانة هي الخيار بين النفي او السجن او الانتحار .

او فلسطين !! الى فلسطين توجه اليهود بيأس ! واصبح مجرى الهجرة اليها « نيجيريا » وارتفعت نسبة المهاجرين من خمسة

بالمئة في اول القرن الى سبعة بالمئة عام ١٩١٤ وعشرة بالمئة تقريباً عام ١٩١٩ الى ان اصبح عددهم اليوم ، عام ١٩٣٩ اكثر من ثلاثين بالمئة من مجموع السكان . وما كان يراه اللورد بلفور خيالا اصبح حقيقة . فاليهود يهددون بأنهم سيصبحون الأكثرية في الأرض المقدسة ، ويلحون في رفع كل الحواجز الموضوعة في وجه الهجرة ، ويدافعون عن نظريتهم هذه بأن ورطتهم التي تدعو الى اليأس تتطلب هذا الأمر وهم وعدوا بفلسطين كوطن لهم. وبمناسبة المأساة اليهودية في المانيا والنمسا يرون ان اغلاق ابوابها في وجه أي لاجي. كان يطلب الدخول ضرب من الظلم غير القابل للتصور .

لقد فتحت الأبواب على مصاريعها عند بدء هذه الاضطهادات وكانت النتيجة التي رأينا . فاذا استمرت هذه الاضطهادات — ومن يستطيع ان يرى لها نهاية — فمن الواضح أن اليهود سيصبحون اكثرية في فلسطين . وحسب انتداب عصبة الامم الذي وكل الى بريطانيا أمر تنفيذه ، يجب على القوة المنتدبة أن تعد السكان للحكم الذاتي ليصبحوا دولا ملكية مستقلة . فاذا حدث هذا في فلسطين فانها تصبح حقيقة « دولة يهودية » .

وبدئت عام ١٩٢٧ محاولة الاعداد للحكم الذاتي . فاعلنت الحكومة الانكليزية عزمها على انشاء مجلس ممثلين في فلسطين. ولم يكن هذا المجلس برلمانا بمعنى الكلمة الذي نفهم . انما مجلساً من الشعب له صلاحياته المحدودة كمجلس استشاري للمفوض السامي. ومع انه لم يكن برلمانا ملكياً ، عليه أن يمارس نفوذاً عظيما ويكون كمدرسة ثانوية للسلطة التنفيذية .

وفي عام ١٩٣٧ كان اليهود لا يزالون اقلية ، وإن كانت اقلية كبيرة ، ولخيبة العرب المُرّة ، الغي فجأة المشروع الذي كانت الحكومة الانكليزية قد تبجحت به بأبواقها فقد قتلته معارضة اليهود الصهيونيين . فهم ممثلون بالبرلمان بأبناء جنسهم والعرب لا يملكون اي صوت ، ولا يمثلهم اي عضو في البرلمان الانكليزي .

وانتقلت الأحوال في فلسطين — حيث توجد اكثرية عربية بالرغم من الاعتقادات الشائنة — من سيء الى اسوأ . وأعلن إضراب عام ، وانتشرت الأعمال الارهابية فأخمدتها الحكومة الانكليزية . غير ان الاخماد لا يقضي على التذمر والتبرم عندما يكونا حقيقيين خالصين . لقد كان شيء آخر لازما : فأرسلت لجنة ملكية لاكتشاف هذا الشيء .

واعلنت اللجنة ان الانتداب غير صالح واعطت رأيها بالتقسيم . وعلى هذا كان على العرب واليهود والقوة المنتدبة ( بريطانيا العظمى ) أن يقنع كل منهم بجزء من الأرض المقدسة .

كان هذا دواء محزناً في الحقيقة . ليست فلسطين بلداً اكبر

---

من وايلز ( wales ) وإعطاؤها الى اليهود بكاملها لا يحل مشكلتهم لأنه يوجد ستة عشر مليوناً منهم في العالم . وحسب التقسيم المزعوم تكون حصتهم من الأرض تساوي مساحة نورفولك ويكون سكانها في هذه « الدولة » الصغيرة محاطين بالبحر الأبيض المتوسط من الغرب ، وببحر العرب المخاصمين الساخطين من الشمال والشرق والجنوب . ولقد انتهكت حرمة العرب منذ البدء بمشروع تقسيم فلسطين اكثر من انتهاكها بمشروع الوطن القومي . ويظهر هذا جلياً عندما نتذكر أن العرب وضعوا الوحدة والاستقلال في رأس المطالب . ومهما يكن فقد مال اليهود الى القبول ، فوافقوا في المؤتمر الصهيوني برئاسة الدكتور ويزمن على فكرة التقسيم ، محتفظين لأنفسهم بحق المطالبة بأشياء أخرى .

وقوبل التقرير ببرودة أكثر في الأوساط الاخرى . فقبله مجلس العموم إلا انه لم يظهر الحماسة الكافية له ، وارجعته لجنة الانتدابات في مجلس العصبة للتدقيق فيه .

وبدلا من أن يكون تقرير اللجنة الملكيـة دواء لمرض تبرم العرب ، فقد زاد في شدته وسوئـه . فعلاوة على رفض العرب فكرة وجود اليهود اصلا في فلسطين جاء التقرير مؤيداً لوجود دولة يهودية تشمل مقاطعات عربية بحته ، مما أثار نقمة هذه المقاطعات بصفة خاصة .

وعادت حركات الارهاب الى الظهور ولا تزال في ازدياد . وعدل الجميع عن الفكرة القائلة إن عصبة الارهـاب هي من قطاع الطرق المنبوذين من الجميـع الافنه من السذج تسيرهم وتديرهم .

وفي عام ١٩٣٨ ارسلت لجنـة خبراء برئاسة السير جون وودهد (Gohn woodhead) لتعطي رأيها في الحدودوالترتيبات التي يجب ان تتخذ لحماية الأماكن الاسلامية واليهوديـة والمسيحية المقدسة وبعض الأشياء الأخرى المهمـة ، التي لا حاجة ان نبحث فيها بتفصيل . واللجنة هـذه ، التي لم ترسل

لتوافق على مشروع التقسيم او ترفضه بل لترى رأيها في طريقة تنفيذه ؛ قدمت تقريراً كان في الحقيقة اعترافاً أنـه لا يمكن تنفيذه . واقترح اعضاؤها تعديلات مختلفة على الخطة الأصلية إلا انها انتهت اخيراً الى أن التقرير كان من نوع المستحيلات.

إن تقرير «وودهـد» مليء بالمعلومات القيمة ولا سيما الاعتراف بعداوة العرب العنيفة لمبدأ التقسيم . ويتبين لنـا أيضاً من محتويات التقرير أن الانكليز كانوا يرمون الى حمايـة الحدود اليهودية لأنه من المنتظر حدوث مناوشات دائمة بـين العرب واليهود .

ولو تركنا جميع الاعتبارات السابقة واكتفينا بقضيـة حماية الحدود العسكرية للدولة اليهودية لوجدنا انه من المستحيل بقاء دولة يهودية صغيرة بدون مساعدة قوة كبيرة من الجيش الانكليزي .

وعاد السير جون وودهد ورفاقه وقدموا تقريرهم . وكان له تأثيره السريع ، فمات مشروع التقسيم ولم يعد أحـد يأمل بامكانيته .

وتبقى المشكلة الفلسطينية ، ولا يُحاول حلهـا . ويبقى العرب واليهود وقوفاً في وجه بعضهم البعض، وتستمر حركات

الارهاب . وإذا كان هناك فترة سكون في وقت ما ، فليست الا مقدمة لهياج وثورة أشد . ولا يزال الجنود الانكليز يجربون المحافظة على « القانون والنظام » ومع ذلك فالمساكن اليهودية تهاجَم ، والطرق غير آمنة ، يُطاف بها سيارات مسلحة تحمل المدافع والجنود البريطانيين والذين يقودون سيارات غير مسلحة يتطلعون بطرف أعينهم الى كل سيارة او ماش ، فقد تُرمى قنبلة قبل ان يتقدموا .

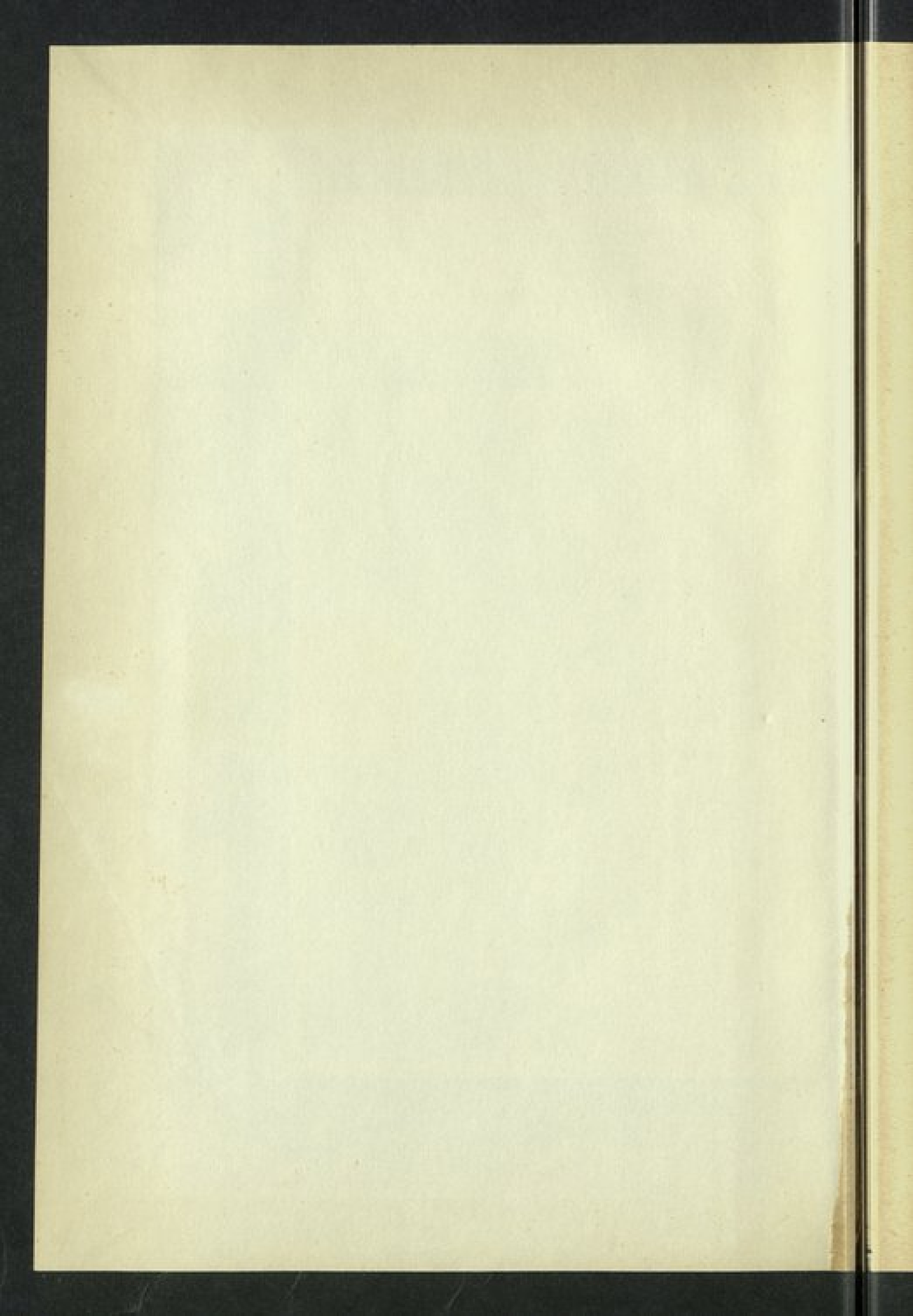
ويقابل الارهاب بالارهاب . فالفرق الانكليزية تهاجم القرى العربية وتدمرها . والاجراءات التأديبية تشتمل على رمي القنابل من الجو ، ونسف البيوت ، وتدمير القرى ، وتخريب ما يملك العرب . ويصبح التجول في انحاء البلاد محدوداً وممنوعاً في أوقات خاصة ، واستعمال اجراس المساء اكثر شيوعاً . ويرسل الأشخاص المشبوهون الى المعسكرات المركزية حيث يبقون دون محاكمة ، ويُنفى آخرون الى جزر سيشل Seychelle Islands دون محاكمة ايضاً ، ومع هذا فآخرون في السجون وغيرهم اموات !

انها قصة رهيبة . لا يسمح بها من يحبون اسم بريطانيا العظمى الشريف ورجالها السياسيين وجنودها . وسوف لا اقول

فيها أكثر من أن أحط مزايا عهد الـ Black and tans المشؤوم في ايرلندا تبعث من جديد في تلك الأراضي التي يعدها المسلمون والمسيحيون واليهود مقدسة . ولا يقام وزن للأنكارات والتكذيبات الرسمية إزاء شهادات من كانوا في فلسطين ورأوا بأنفسهم ما تكلمت عنه .

إن محاولة اخماد الثورة بهذه الوسائل الفظيعة القاسية ضرب من العبث كما هي مكروهة. وقد قال لي الرجال والنساء العرب مرات عديدة : « إذا سمح الجنود الانكليز لأنفسهم براحة اربع وعشرين ساعة ، لا يبقى في فلسطين يهودي حي . » وهذا النداء صادر عن رجال ونساء يتابعون بصوت واحد « لتوقف الهجرة الصهيونية الى فلسطين ، فيعود السلم غداً . »

وعلينا ، لخيرنا جميعاً نحن الانكليز ، أن نجد طريقة افضل من هذه التي نتبعها الآن في فلسطين .



DATE DUE

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |

